

عيسى الناعوري

لماذا نحن شعب لا يقرأ

بقلم عيسى الناعوري

* * *

من الضروري ان نعترف ــ بمرارة وخجل ــ بأن امتنا العربية من المحيط الى الخليج ، بملايينها التي يقال انها اصبحت الان مئة وعشرين ــ اللهم زد وبارك ... ــ هي امة لا تقرأ ، بل هي امة لا تحب ان تقرأ ، ومن مظاهر اميتها انها كثيرا ما تعتقد ان الكثيرين من معتوهيها انما فقدوا عقولهم بسبب القراءة !... « صار مجنون من كثر العلم ! » .

ولسنا نحب ان نقيس او نقارن ، لان القياسة والمقارنة ، حتى مع شعوب اصغر مناربكثير ، واقل منا مرارا بما قدموه للحضارة الانسانية في تاريخهم ، سيقودا‌ننا اليوم الى مزيد من المرارة والخجل .

واحصائية بسيطة مرتجلة ، ابعد ما تكون عن الدقة والتحديد ، تستطيع ان تقول لنا بكل صراحة ان من بين الملايين المئة والعشرين التي تتألف منها امتنا العربية ما لا يقل عن : خمسة ملايين من حملة الشهادات الجامعية والموشكين على حملها .

وخمسة عشر مليونا من حملة الشهادة الثانوية العامة او ما يعادلها . ومثل هذا العدد او اكثر من طلبة المدارس وطالباتها في المرحلة الثانوية والمرحلة الاعدادية.

هذا حد ادنى واعتباطي جدا لمن كان من المفروض ان يقراوا ، وان يكونوا مثقفين . انه رقم ضخم يقارب اربعين مليونا من المواطنين ، اي ما يماثل عدد سكان بلدين او ثلاثة بلدان من بلدان اوروبا الوسطى ؛ مثلا ، كالمجر ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وغيرها .

ولكنني اسوق مثلا واحدا مما عرفته بنفسي في بلد صغير جدا ، هو المجر ، لا يزيد سكانه على عشرة ملايين، لكي أبين الفوارق المخجلة بين أميتنا وثقافتهم .

في اتحاد الكتاب المجريين في بودابست ، وكذلك في نادي القلم الدولي هناك ، التقيت بعدد من الادباء والشعراء ، وسألتهم وسألوني ، فشعرت بانني اغور في باطن الارض خجلا ، وبأنهم يحلقون فوق الغيوم، فالطبعة الواحدة عندهم من الكتاب تتراوح بين خمسين الف نسخة ومئة وخمسين الفا ، ولا تمكث طويلا في الاسواق (اسواق المجر وحدها ، وهي صغيرة ومحدودة الرقعة الجغرافية) . ثم تتكرر الطبعات وتتلاحق حتى تبلغ النسخ المطبوعة من الكتاب الواحد في مدى محدود من السنين مئات الالوف ، او تتجاوز المليون .

والكتاب عندنا ... هل أتحدث عنه ، ام اتوقف خجلا ؟!

لا بأس ، سأتحدث ، فالخجل لا قيمة له عندنا ، وهو لن يدفعنا الى ان نغير ما بنا من امية ورضى بالجهل ، مع الاسف !...

انا ممن تمرسوا بالكتابة طويلا : قرابة أربعين عاما في هذا الحقل ، وناشروا كتبي العديدون موزعون في الاردن ، وسوريا ، ولبنان ، ومصر ، وتونس ، ومالطة ، وايطاليا (ولادع ايطاليا) ، لا اتحدث عنها الان خشية من فضيحة تصيب منشوراتي في البلاد العربية عند المقارنة !..) اما الصحف التي كتبت فيها فتنتشر من عمان الى المغرب ، او من الخليج الى المحيط دون تحديد ، ثم تقطع المحيط الى اميركا الشمالية والجنوبية، لم تبق مجلة ادبية عربية او استشراقية تعتب علي : وترجم العديد من شعري واقاصيصي الى لغات غربية متعددة . وبلغ عدد مؤلفاتي ومترجماتي المطبوعة حتى الان ثلاثة وعشرين كتابا ، ومثلها او اكثر ينتظر النشر .

فانا اذن كاتب ومؤلف معروف ــ لحسن حظي او لسوئه ــ في كل بلد عربي ، ولدى كل مستعرب في كل بلد غربي ، ولدى كل صحيفة وكل كاتب في ديار الهجرة والاغتراب . ومع ذلك ؟!

١ ــ لم تزد طبعة اي كتاب من كتبي على ٢٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ نسخة (لجميع البلدان العربية ذات الملايين المئة والعشرين) .

٢ ــ لم ينفد اي كتاب من كتبي في اقل من ١٠ــ١٥ سنة ، رغم توزيعه في كل الاقطار العربية وقلة عدد النسخ المطبوعة .

٣ ــ كان من اسوأ تجارب عمري الادبي ان كثيرين ممن اهديت اليهم نسخا من مؤلفاتي ومترجماتي لم يحاولوا ان يقرأوها ــ وهذا بعض من كره القراءة حتى عند اربابها !...

٤ ــ لم اجرؤ قط ــ ولا يجرؤ اي ناشر ــ على اعادة طبع كتاب مما نفد من كتبي ، لانه اذا احتاجت الطبعة الاولى الى اكثر من عشر سنوات لنفادها ــ او

نفاد قسم منها — فالطبعة الثانية تحتاج الى دهر لنفادها . يستثنى من هذا كتابي « ادب المهجر » الذي اعيد طبعه مرتين (عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٧) ، وكتابي « ايليا ابو ماضي » الذي اعيد طبعه بعد وفاة ابي ماضي مع زيادات عليه اكبر من حجمه الاصلي ، وسبب اعادة الطبع هو اغتنام الفرصة ... لان وفاة الشاعر ستجعل هناك اناسا يحبون معرفة شيء عنه !...

٥ — القسم الاكبر من كتبي وزع هدايا ، وما يزال الباقي منه يوزع ، لان الشارين مفقودون .

٦ — من كل مكان في الاردن وفي الاقطار العربية اتلقى العديد من الرسائل تطلب ان « اهدي مؤلفاتي الى المكتبة الفلانية ، او الجمعية العلانية ، او النادي الفلاني — » ولكن يندر جدا جدا جدا ان اتلقى رسالة مشفوعة بمبلغ من المال تطلب بعض مؤلفاتي .

٧ — لم يحدث قط ان صديقا لي اشترى نسخة من كتاب لي وجاء يطلب ان اوقع له عليها ، فالعادة لدى كل من يعرف كاتبا ، ويعلم انه صدر له كتاب ، ان يلقاه في الشارع ، او يحضر لزيارته ليقول له : « اين حصتي من الكتاب » ؟! وحين ينال حصته — ضريبة المعرفة طبعا — يزيد قائلا : « حط لك عليها كلمة اهداء ! » ... ومثل هذا لا يحدث في الغرب على الاطلاق ، لانه من قلة الذوق التي لا قلة ذوق بعدها . ويتفضل حضرة الصديق فيحمل النسخة ليصمدها على رف من بيته للزينة ، وكفى الله المؤمنين القتال ... والقراءة طبعا !...

وليست حالتي هذه غريبة عن حالات الادباء الاخرين ، فكلنا في الهم شرق !

على ان اسوأ ما يمكن ان يتصوره العقل من احتقار الاديب لنفسه ولادبه — وهذا من نتيجة معرفته لعدم وجود القراء وعدم رواج الكتب — هو ان يجعل الاديب من نفسه مؤلفا ، وناشرا ، ومخرجا ، ومنتجا ، واخيرا موزعا ، فيحمل جرابا تحت ابطه ، او حقيبة في يده يملأهما بالنسخ ، ويدور على الدوائر ، والوزارات ، والمكاتب والشركات ، وعلى الافراد ليروّج بضاعته . ويزيد في الاحتقار وقلة القيمة ان يثقل على اصدقائه فيعطي كلا منهم عددا من النسخ لكي يبيعها له . فاذا ما رضي صديقه بذلك فهو لا يفعله الا بعد الف مسبة يرددها في داخله سخطا على هذا التكليف الثقيل الدم . وكثيرا ما يضطر هذا الصديق المغلوب على امره الى دفع ثمن جميع النسخ من جيبه الخاص ، لان نفسه لا تطاوعه على ان يشتغل بدوره سمسارا وبائع كتب متجولا !..

هذه صورة من وضع الاديب والكاتب العربي عامة ، الا من عصم ربك فجعل له منصبا عاليا ، ونفوذا كبيرا وعملا صحفيا يساعده على رواج كتبه ، او عرف كيف تستغل الظروف وكان بارعا في صيد المناسبات ...

اما اسباب ذلك كله فعديدة ، تبدأ من البيت ، وتنتهي في المجتمع ، وتمر بينهما على المعلم والمدرسة . ولكنني سأقتصر في حديثي على المدرسة وحدها . واود ان اوضح هذا الآن ، مركزا كل التركيز على دور وزارات التربية والتعليم في البلاد العربية برمتها قبل كل شيء ، لانني اعتبرها المسؤولة الاولى عن « امية » الشعوب العربية .

١ — البيت العربي : يندر جدا ان ينشأ الطفل العربي فيجد في بيت ابويه كتابا ، او يجد احدا من اسرته يقرأ كتابا ، او يدخل حتى مجلة ادبية او علمية او فكرية الى بيته . وفي مثل هذا البيت الامي لا بد ان يكون اول انطباع في نفس الطفل ان الامية هي الاصل وهي الخير كله ، وان الكتاب والمجلة ليس في دخولهما الى البيت غير الضرر . ومن هنا يبدأ كره الطفل الاول والاساسي في الذهاب الى المدرسة ، لان في المدرسة كتبا ، ومعلمين يقسرونه على ان يقرأها . وهذا ليس في بيت والديه ، ولو كان الكتاب شيئا حسنا لكان له وجود في بيته اولا !...

٢ — المجتمع العربي : قبل ان اقول كلمة في هذا اود ان اشير الى برنامج كان قدمه منذ بضعة اسابيع التلفزيون الاردني ، فكان فضيحة ، اذ اثبت ان المجتمع الاردني — وفيه المحامي ، ومعلمة المدرسة ، وخريج الجامعة ، والطالب الجامعي ، والشيخ ، والعامل ، والتاجر ، والموظف — لا يقراون كتابا ، ولا يعرفون اسم كاتب واحد — على الاخص في الاردن — ولا يخصصون قرشا واحدا في الشهر لشراء كتاب . وقد اشرك المخرج في برنامجه بائع الكتب والناشر والمطبعة كذلك . وليست الفضيحة مقتصرة على الاردن وحده ، فلو حمل مخرج البرنامج مذياعه ووقف على ناصية اي شارع في القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد واي بلد عربي اخر ، واجرى الاستفتاء عينه الذي اجراه في شوارع عمان ، لخرج بالنتيجة عينها ، فالمجتمع العربي واحد كله من حيث الامية : امية الاميين والمتعلمين على السواء — ولا يقاس على الندرة التي تشتري الكتب وتحب القراءة ! —

وما هو المجتمع ؟

المجتمع ليس سوى البيت مكررا ، فاذا كان البيت — كما قدمنا — اميا ، ومشجعا على الامية ، كان المجتمع هو ذلك البيت عينه مكررا مئات المرات او الوفها او ملايينها . البيت هو الصورة الصغيرة ، والمجتمع هو اللوحة المكبرة مرارا متعددة ، زيادة في الفضيحة وابراز العيوب !

واذا كان البيت بيئة للامية ، وكان المجتمع صورة الامية الكبرى ، فأين نلتمس العلاج اذا ؟

لم يبق غير المدرسة : والمدرسة تستقبل الولد من البيت ، لكي تعود بعد ساعات فتقذفه من جديد الى البيت والى المجتمع . فماذا تنتظر منها ان تعمل في هذه

السويعات التي تستقبله فيها ؟ ثم ما هي اساليبها ووسائلها لكي تجعل منه انسانا جديدا غير ابن البيت الامي والمجتمع الامي ؟!

هنا سأخرج عن حيز المدرسة المحدود الضيق لاتحدث عن وزارات التربية والتعليم في البلاد العربية — لا استثني مطلقا ، فكلنا ، كما اسلفت ، في الهم شرق — . ولن يغرني او يدبر راسي ما لهذه الوزارات من قوانين وانظمة وتعليمات ، وما تضعه من اسس واهداف ، وما تتبجح به من النظريات التربوية الحديثة والقديمة ، ومن البيداغوجيا والاساليب ، وما الى ذلك مما لا نهاية له ، كما لا يخدعني في شيء مئات الدورات التدريبية قبل الخدمة ، وفي اثناء الخدمة ، وبعد الخدمة ، وكل وسائل التأهيل والاعداد . فانا من فوق هذه كلها ، وقبل هذه كلها انظر الى النتائج . واتساءل : هل في برامج وزارات التربية والتعليم في العالم العربي ان تخرج « المتعلم القارىء » ؟!

رسالة وزارات التربية هي هنا ، فاذا اخفقت في هذا اخفقت في كل شيء !

فما هي النتائج التي نلمسها من كل اعمال وزارات التربية والتعليم في البلاد العربية ؟

انه لمن المؤسف ان اضطر الى القسوة في ما سأقوله في هذا الصدد ، لانني — رغم القسوة — لن اقول غير الحقيقة ، والحقيقة مرة وقاسية في اكثر الاحيان . وما سأقوله سأجمله اجمالا في نقاط قد لا يكون فيها ترتيب ولكن فيها كل الحقيقة :

١ — وزارات التربية والتعليم في جميع البلاد العربية ، دون استثناء ، ليست وسائل علم ولا ثقافة ولا معرفة ، بل هي وسائل « فك امية » .

٢ — غاية هذه الوزارات في مدارسها هي مجرد « تبصيم » الطلاب كتبا معينة ، في سنين معينة ، للحصول على شهادة معينة اسمها « الاعدادية العامة » او « الثانوية العامة » ، ولكن دون ثقافة ودون فكر ودون معرفة ، واهم من ذلك ، دون حب للكتاب . وكل اساليبنا ، وكل جهود معلمينا ، مكرسة لغاية التبصيم هذه فحسب للحصول على شهادة فك الامية (الاعدادية او الثانوية) .

٣ — ان الارهاق المتواصل في تبصيم الطالب كتب المدرسة المتعددة المتنوعة على مدى مراحل الدراسة المختلفة ، لا يسمح للمعلم اولا ، ولا للطالب ثانيا ، بزيادة ثقافتهما عن طريق المطالعة الخارجية ، ومعرفة ما تكتبه الاقلام وتنتجه المطابع ، ولا معرفة اصحاب هذه الاقلام وهذا الانتاج الفكري المتنوع .

٤ — اذا اردنا الدليل الاكيد على هذا في مدارسنا فأمامنا مكتبات المدارس نفسها ، وامامنا عدد من يقرأون فيها ، وعدد الكتب التي تمتد اليها الايدي — ايدي المعلمين والطلبة على السواء — طوال العام المدرسي ، بل طوال العهد المدرسي كله . علما بأن كل مكتبة يضاف اليها كل عام عدد لا بأس به من الكتب المشتراة او المهداة ، وكذلك من المجلات .

٥ — وزارة التربية والتعليم في الاردن — ومعذرة اذا قلت الحقيقة وانا موظف فيها — أعجوبة الاعاجيب في قتلها للقلم الاردني وللاديب الاردني ، بالنظام العجيب الذي يكاد يقول للكاتب الاردني بصريح العبارة : « انت لست منا ولسنا منك » ! وسيكون من اعظم اعمال وزير التربية والتعليم — اي وزير تربية يقدم على هذه الخطوة — ان يمزق هذا النظام بيده .

٦ — الخلاصة : اذا كانت غاية المدرسة تخريج « المتعلم القارىء » — وقد شبعنا من خرافة « تخريج المواطن الصالح ! » ، فلا مواطن صالح اذا كان اميا ! — فوزارات التربية والتعليم العربية كلها مخفقة في هذا كل الاخفاق ، لانها لا تخرج غير حامل « شهادة فك الامية » . ثم يخرج هذا « المفكوك الامية » ليغلق الكتاب بعد ذلك الى الابد ، لان كتب المدرسة ، واساليب المدرسة وارهاق البصم والتبصيم المتواصل مدى اثني عشر عاما او اكثر ، قد كرهت اليه كل كتاب ، ولان معلم المدرسة قد كره اليه كل فكر ، كما ان المعلم نفسه — في هذا المدى الطويل — قد كره الطالب والكتاب والمعرفة معا .

٧ — حتى الطالب الذي يمضي بعدئذ الى الجامعة ، غالبا ما لا يغير من امره شيئا ، لانه يظل يبصم — في الغالب — حتى يحصل على شهادة اعلى في « فك الامية » ، فاذا حصل عليها رمى بآخر كتاب في يده الى الجحيم ، وتنفس الصعداء من شر البصم والارهاق .

وما اكثر ما تكون شهادات الليسانس والماجستير والدكتوراة شهادات « فك امية » كبيرة فقط ، يعلقها صاحبها بفخر على احد حيطان منزله ليقول للناس في زهو الطاووس :

« اميتي انفكت نهائيا ، ولست بعدها في حاجة الى العلم ! »

هذه الخطيئة الكبرى في كوننا شعب لا يقرأ بدأت في المدرسة وانتهت في المدرسة . ووزارات التربية والتعليم العربية مسؤولة عنها اولا واخرا ، قبل البيت الامي والمجتمع الامي .

ثم نتحدث اليوم — كلنا نتحدث مع الاسف — عن التكنولوجيا : « اسرائيل هزمتنا بالتكنولوجيا ! يجب ان نسير حياتنا على التكنولوجيا !... »

وما هي التكنولوجيا التي تتحدثعنها كل الببغاوات في دنيا العرب اليوم ؟ اهي معرفة استعمال الدبابة والمدفع والطائرة والصاروخ ؟! هذه ليست التكنولوجيا !

التكنولوجيا فكر يخلق ، ويصمم ، ويصنع ، ويسير . التكنولوجيا فكر قبل ان تكون آلة ، لان الآلة بنت الفكر . وكيف تدرك التكنولوجيا امة لا تقرأ كتابا ؟!

عمان — الاردن

عيسى الناعوري



محمد رجب البيومي

بين حفني وحافظ

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

لم يكن الاستاذ الامام محمد عبده استاذ الازهريين وحدهم ، فقد كان أرباب البيان في عصره من فرسان الشعر والنثر يؤمون ندوته ، ويتلقون عنه دروس التفسير في الرواق العباسي ، وكان من بين هؤلاء حافظ ابراهيم وحفني ناصف . أما حافظ فأشهر من ان نشير اليه بقول ، واما حفني ناصف فأحد أئمة العلم والادب في مفتتح هذا القرن ، تعلم في الازهر ودار العلوم ، وتنوعت ثقافته فكان من قضاة المحاكم الكبرى في مصر ومن أساتذة الادب واساطين المفتشين بوزارة المعارف ثم استاذا بالجامعة المصرية حيث تخرج على يده اكثر المجيدين في البحث والتأليف ، وقد اشترك مع حافظ في خفة الروح وحلاوة الفكاهة وذيوع النادرة ، وحين انتقل الاستاذ الامام الى جوار ربه اقيمت له حفلة تأبينية كبرى بمصر ، ألقى فيها حفني مرثيته التي مطلعها :

لم لا تجيب وقد دعيت مرارا ... يكفي سكوتك اربعين نهارا

وقد ابتدأها ابتداء مسرحيا ، حيث نادى يا محمد ست مرات قبل ان ينشد قصيدته فلفت الاذهان لفتا مثيرا ثم بدأ بقوله لم لا تجيب .

وقد سلك حفني في مرثيته مسلك العاقل المتزن الذي لم تشغله الكارثة عن متابعة ادوار الامام في الاصلاح الديني والسياسي والاجتماعي ، فأخذ يسردها في سهولة قديرة ، وكانت روح الجد تسيطر على نظمه فلم يجنح الى ما عهد في شعره من الجناس والتورية والطباق بل غمره الموضوع الحي بانفعاله الواضح فارتفع عن مستوى هذه النكات ، واخذ يتحدث في اتئاد عن حاجة المسلمين للامام الفقيد اذ يناضل عن شريعة الاسلام مناضلة العاقل المكين فيصون الدين من شبه الاعداء ويذب عن آي الكتاب مدافعا هجمات المتخرصين ومفسرا فرائد الآيات بعذب البيان ورائع التأويل ، ثم يعمد الى الخرافات والبدع فيبين بعدها عن روح الاسلام ويدعو العلماء الى العمل تحت راية الحق مناصرين متآزرين ، وملتفتين الى طبيعة العصر وضرورة الالمام بتياراته السياسية وآرائه العلمية وثقافاته الوافدة من بلاد التقدم مجادلا بالتي هي أحسن ، وناهجا في التعبير البياني نهج أئمة الادب في أزهى العصور حتى أعاد للعربية مجدها وللاسلوب البياني روعته وتأثيره ونفاذه ، هذا الى مسعاه في الخير لاعانة أهل المسغبة وقضاء حاجات السائلين ، والتمسك بأخلاق الاسلام وما يدعو اليه من صدق ووفاء وأمانة واخلاص ، ساعيا في الاصلاح الديني مسعى الغيور على تحقيقه مرشدا الى وجوه الاصلاح ومنافذه ... كل ذلك قد جاء به الشاعر في براعة نادرة اذ كان في مرثاته القوية مؤرخا وشاعرا في آن واحد ، حتى لتعجب له كيف اختصر جهود الامام في أبيات روائع يصلح كل بيت منها ان يكون عنوانا لباب يكتب في مؤلف خاص بتاريخ محمد عبده ، واليك بعض ما قاله في رثاء المصلح العظيم :

من ذا يناضل عن شريعة احمد ... ويذود عن أكنافها الاخطارا
ويصون دين الله عن شبه العدا ... ويرد غارة من به يتمارى
ويجيء في تفسيره بعجائب ... ويذيع من مكنونه الاسرارا
ويطهر الاسلام مما شابه ... ويزيل عن غدرانه الاكدارا
ويذكر العلماء الا يغمضوا ... عما اقتضاه زمانهم أبصارا
ويجادل الاشرار بالحسنى فلا ... ينفك حتى يصبحوا أخيارا
ويجدد العربية الاولى وقد ... صارت بغفلة أهلها آثارا
ويعيد للانشاء سابق مجده ... ويشيد في أنهاره انهارا
ويرد اعواد المنابر جذلة ... لا تحسد الميدان والاوتارا
ويحث أهل المال ان يتوسطوا ... في البذل لا سرفا ولا اقتارا
يقضي حوائج سائليه فلا يرى ... في نفسه سأما ولا استكبارا
ويظل بالاصلاح مغري كلما ... وجد السبيل الى صلاح سارا
حتى كان عليه عهدا للعلا ... ان يصلح الاخلاق والافكارا
ان كان فينا مرشد يقوى على ... ذا العبء اوسعنا له الاعذارا
أولى فاولى ان تفيض نفوسنا ... هلعا ونسعى للمنون بدارا
لا خير بعد محمد في العيش ان ... كانت نفوس الخالفين صغارا

اما حافظ ابراهيم فكانت مرثيته اقوى ما قيل في الامام لان عاطفته الذاتية نحو أستاذه كانت من الانفعال والتوقد بحيث جعلته يرثي بدموعه وزفراته قبل ان يرثي بمعانيه واوزانه وقد قال فيما قال :

سلام على الاسلام بعد محمد ... سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا ... على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادي الموت قبله ... فاصبحت اخشى ان تطول حياتي

لقد جهلوا قدر الامام فأودعوا ... تجاليده في موحش بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لانزلوا ... بخير بقاع الارض خير رفات
تباركت هذا الدين دين محمد ... أيترك في الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد مضى ... ولانت قناة الدين للغمرات
زرعت لنا زرعا فاخرج شطأه ... وبنت ولما نجتن الثمرات

وكما قال حفني ناصف :

ان كان فينا مرشد يقوى على ... ذا العبء اوسعنا له الاعذارا

فان حافظ قد فصل في القضية ، وجهر بأن الشرق قد اقفر من مصلح يسد فراغ الامام فصاح متحسرا :

مددنا الى الاعلام بعدك راحنا ... فردت الى اعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا ... فعدن وآثرن العمى شرقات
وآذوك في ذات الآله وانكروا ... مكانك حتى سودوا الصفحات
لقد كنت فيهم كوكبا ذا غياهب ... ومعرفة في انفس النكرات

والقصيدة جذوة مشبوبة اوقدها حزن حافظ على استاذه ، فقد روى معاشروه أنه كان ينظمها وهو يبكي من حرقة الالم ، وشجاها المؤثر يمنع ما قاله الاستاذ محمود مصطفى في كتاب « الكلمات » من ان حافظا أعدها قبل الوفاة بأمد اذ توقع موت الامام في مرض ميئوس من شفائه ، ولعمري لقد ظلم الناقد شاعر النيل ، فمثل قوله يصدق على مرثية تقال في راحل ثري استرضاء لاولاده وزلفى لديهم بما قال ، فناظمها يبذل الجهد مفتعلا شتى المعاني كي يلفق ابياتا وراء ابيات ، أما مرثية حافظ للامام فصرخة رنانة ارتفعت من سويداء قلب جريح لترن في سمع الزمان أشجى الرنين ، وقد توهجت عاطفة حافظ في كل بيت من أبيات المرثية اذ تحدث عن جهاد الامام في التوفيق بين الدين والعلم والعقل (فاطلعت نورا من ثلاث جهات) واشار الى مواقفه الرائعة من امثال هانوتو والمتهجمين على الاسلام حيث اورد حججهم مورد التفنيد والبطلان ، فكم ليلة جافى فيها الكرى ونبه صادق العزم ليرصد للمفترين شباة يراع ساحر النفثات .. ثم يغلب الشاعر حزنه فيهتف صارخا :

فيا سنة مرت بأعواد نعشه ... لانت علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفا وعطلت منبرا ... واذويت روضا ناضر الزهرات
واطفأت نبراسا واشعلت أنفسا ... على جمرات الحزن منطويات
رأى في لياليك المنجم ما رأى ... فانذرنا بالويل والعثرات
ونبأه علم النجوم بحادث ... تبيت له الارواح مضطربات
رمى السرطان الليث والليث خادر ... ورب ضعيف نافذ الرميات
فاودى به ختلا فمال الى الثرى ... ومالت له الاجرام منحرفات
وشاعت تعازي الشهب باللمح بينها ... عن النير الهاوي الى الفلوات
مشى نعشه يختال عجبا بربه ... ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدموع الجاريات تقله ... وتدفعه الانفاس محترقات

وهي قصيدة تداولها الرواة بمصر حتى طبقت الآفاق ، وكان من المصادفات العجيبة ان الذين قاموا بتأبين الاستاذ الامام جاءوا في الالقاء على هذا النسق ، اذ ابتدأ الحفل الشيخ أحمد أبو خطوة وتلاه حسن عاصم باشا ومن بعده حسن عبد الرازق باشا فقاسم امين بك فحفني ناصف فحافظ ابراهيم ، وقد مات الاربعة الاولون واحدا واحدا على حسب ترتيبهم يوم التأبين .

وجاءت النوبة على حفني بك فكتب الى حافظ يقول :

أتذكر اذ كنا على القبر ستة ... نعدد آثار الامام وننـدب
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا ... ممات على وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقفاه عاصم ... وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبى وغابت بعده شمس قاسم ... وعما قليل نجم محياي يغرب
فلا تخش هلكا ما حييت وان أمت ... فما أنت الا خائفا تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف ... ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض بحجج الهيجاء أعزل آمنا ... فان المنايا عنك تنأى وتهرب

وكانت ملاحظة جذبت انتباه حافظ جذبا قويا مع ما تخللها من الفكاهة الطريفة ، اذ ظهرت خفة روح حفني في دعوته صاحبه الى الوقوع تحت القطار والنوم تحت الجدار المخرب في منازل الاوقاف ، وخوض المنايا في الحرب دون سلاح فانه لن يجد الموت حتى يسبقه حفني اليه ، فاذا حقت عليه الكلمة فما هو الا خائف يترقب .

وقد أقيمت حفلة تكريمية لحفني في بعض مناسبات الترقية الوظيفية بالوزارة ، تحدث فيها العلية من الادباء والشعراء وجاء دور حافظ فقال يمازح صديقه :

أخشى عليك المنايا ... حتى كأنك مسي
اذا شكوت صداعا ... أطلت تسهيد جفني
وان عراك هزال ... هيأت لحدي وقطني
وان دعوت لحي ... يوما فاياك أعني
عمري بعمرك رهن ... فعش اعش الف قرن

وهو بذلك يشير الى المصادفة العجيبة التي عناها حفني في أبياته السابقة ولم ينس شاعر النيل ان يمازح حفني بذكر فقره المدقع أيام كان طالبا بالازهر يقرأ الحواشي والشروح ، ويطالع الشمني وابن جني ، ويأكل العيش والمش مع زميله محمد سلطان ، ويتساءل عن مثقال حبة من لحم او سمن فلا يجد ...

لم ينس حافظ ذلك حين قال :

ولا أقول لحفني ... ما قيل قد ما لمن
لا تنس عيشا تولى ... ما بين شرح ومتن
ولى شبابك فيه ... ما بين مد وغن
وذقت من « جاء زيد» ... ومن شروح « الشمنى »
ومن حواشي الحواشي ... على متون ابن جنى
أيام سلطان يلهو ... بمشه ويغنى
يبيت يقصع ما لم ... أسمه أو أكنى
أيام يدعوك حفنى ... من الحياة أجرنى
من لي بدرهم لحم ... عليه حبة سمن

ثم يموت حفني ، فيتحقق حافظ قرب الكارثة ، ويرى نذر الموت تلاحقه ، ويبدأ برثاء صديقه وكأنه يرثي نفسه هو حين يقول :

آذنت شمس حياتي بمغيب ... ودنا المنهل يا نفسي فطيبى
قد مضى حفني وهذا يومنا ... يتدانى فاستثيبي وأنيبى
قد وقفنا ستة نبكي على ... عالم المشرق في يوم عصيب
وقف الخمسة قبلي فمضوا ... هكذا قبلي واني عن قريب
وردوا الحوض تباعا فقضوا ... باتفاق في مناياهم عجيب
هدأت نيران حزني هدأة ... وانطوى جفني فعادت للشبوب

ذاك ما كان من امر هذه المصادفة بين الشاعرين ، تلك التي خلدها الادب ، وتناقلها الناس فكانت مثار

الى هـاتفـة

ايغيب صوتك في المدى النائي   مثل الصدى ، ويموت اصغائي
واعــود ابحـث عـن تموجـه   في مسمعي ، في كـل اجزائـي
ولمحت طيفــك في مراقصـه   نشوان ، يمـرح خلف اغفائـي

. . . .

لا تحجبـي اصداءهـا ، ودعـي   في مسمعــي رعشات اصــداء
هاتــي خيالــك ، غير قابعـة   هذي الطيوف لمقلــة الرائــي
مــا زلت اسال عنــده اذنـي   عن فتنتي الكبـرى ، واغوائـي
وتـركت عنـد رفيقـه مقلـي   لا تستريــح ، وكـل اغرائـي

يــا مقلتي .. ولــي وراءكمـا   سيبان : الهامــي وايحائـي
سبحت وراء السلـك اخيلتـي   ومشت صباباتـي واهوائـي
فكــان كـل مشاعري لهــب   عبر « الشريط » سرى بانشائي
يا سلك ، يا مجرى الهوى نعست   في مستدقـك عــين انبائــي
ما زلت موصول الهوى بدمــي   رغـم القطيعـة مــن احبائـي
بينــي وبــين احبتـي سـدف   ... ، لكــن ذات اضــواء
غنيت عبـرك كـل عاطفـة   رعافـة الرغبـات معطـآء
يـدري « شريطك » أي ملهمـة   توحـي اليـه ، واي حسنـاء
ســل عـن اغانيـه ولوعتـه   قلبـا تحـرك بـين احشائـي

طرطوس ـ سورية   **احمد علي حسن**

الذكرى ، وحافظ ممن يقدرون حفني ، ويؤثرون مودته في وفاء واخلاص ، وقد كان شريكه في سرائـه وضرائـه يهنئه اذا أصاب الخير ، ويواسيه اذا ألمت بـه الكوارث ، وحين ماتت باحثة البادية كريمة حفنـي ناصف وهـي زعيمة النهضة النسائية في أيامها وفارسة الشعر والنثـر بين الفحول من الكاتبين كانت مرثية حافظ لها ثناء عليها وعلى والدها المفجوع وقـد جمع بينهما اذ ذكـر فضل الوالد على الناشئين وفضل (ملك) على الناشئات ، وقد تحدث عن نثر حفني ونثرها مفصلا مواقف ملك الرائعـة في الحياة الاجتماعية والابية بمصر . وقد أسال الدمـوع حين صور فجيعة الوالد في كريمته تصويرا مشجيا اذ كان:

كالفرع هزتـه العواصف   فانثنــى ثــم انكســر
ثمــلا ترنحه الهمــوم   اذا تحامــل أو خطــر
قـد زعزعتـه يد القضا   ء وزلزلتـه يــد القـدر
أنا لم اذق فقـد البنين   ولا البنـات على الكبـر
لكننـي لمـا رأيت فؤا   ده وقــد انفطــر
ورأيته قـد كـاد يحر   ق زائـريـه اذا زفــر
ورأيتـه أنــى خطـا   خطـوا تخبـل او عثـر
أدركت معنــى الحـزن   حزن الوالدين فمـا أمـر
صبرا أبـا ملك فـان   الباقيـات لمـن صبـر

وهو شعر حي يحمل لوعة الشجي ويصور مـرارة الحزن في هدوء نبرة وسماحة تعبير ، وفي المجـال متسع لبقية من الحديث عن حفني وحافظ فالى حين قريب .

الفيوم ـ دار المعلمات   **محمد رجب البيومي**



عامر محمد بحيري

حصـاد السنين

بقلم عامر محمد بحيري

* * *

الشعر والمسرح

كان عود الثقاب الذي اتقد بين جوانحي ، وهو ينير لي طريقا جديدة للشعر العربي ، ليس لي بها عهد من قبل .. عندما حمل الي والدي رحمه الله . عددا من صحيفة « السياسة الاسبوعية » في شهر ابريل عام ١٩٢٧ .. وقد لمس بدء اهتمامي بالشعر : فجاءني بهذا العدد الخاص ، الذي احتوى على القصائد والكلمات التي ألقيت او كتبت بمناسبة مبايعة احمد شوقي بأمارة الشعر ، في القاهرة ، في ذلك الحين .. قائلا لي : اقرأ !

كان العدد في جملته هدية ادبية قيمة ، لشاب متعطش لهذا اللون من الغذاء الروحي في اول نشأته الادبية .. الا ان عود الثقاب الذي اشعل النار الخالدة بين جوانحي كان يتمثل في سطور قليلة من مقال تضمنه العدد ، يشير الى ان شوقي كان قد بدأ في شبابه ينظم الشعر المسرحي ، ثم اهمله فترة .. وقد عاد اخيرا الى هذا الفن الجليل ، فراح يكتب مسرحية شعرية .. بعنوان « مصرع كليوباترة » .. واورد كاتب المقال ـ وقد نسيت من هو ـ مقطوعة صغيرة من هذه المسرحية ، على لسان انطونيو ، بعد ان هزم في حربه مع اكتافيوس عند مشارف الاسكندرية .. وهو يقول لتابعه اوروس ، في ضعف ويأس وتخاذل :

أوروس اني جهدت سيرا ومسني الضر والكلال
فمل بنا نسترح قليلا من قبل ان يدهم الرجال

وظللت فترة بعد ذلك اترقب ظهور « مصرع كليوباترة » حتى طبعت في العام التالي ، ووزعت وزارة المعارف نسخا منها على طلاب السنة الرابعة الثانوية ، فقرأتها ، وفي العام التالي ظهرت « مجنون ليلى » .. معجزة شوقي في ذلك الوقت ، فحفظتها ايضا .. وتتبعت ظهور مسرحيات شوقي بعد ذلك كلها .. ولي مع كل منها حديث منفرد يأتي في حينه ، من هذا الحديث ، بتوفيق الله ..

وقد ذكرت فيما سبق ان صلتي بشكسبير وقعت في ذلك الوقت نفسه ، فقرأت « الاقتراب من شكسبير » لشارلس وماري لام ، في السنة الرابعة ، ثم درست « العاصفة » في السنة الخامسة .. فحدث هذا التوافق بين شاعري المسرح الكبيرين ، شكسبير وشوقي .. وتم التفاعل ، وجرت المحاكاة لهما من اول وهلة .. كنت ادرس « الثورة الفرنسية » في ذلك الوقت ، وكان لها اثر كبير على نفسي ، فرحت انظم مسرحية شعرية بعنوان « ماري انطوانيت » .. لولا ان بعض زملائي حذرني من المضي في كتابتها ، لانها كانت تدعو الى محاربة النظام القائم ، مما كان محرما في ذلك الوقت أي تحريم ..

واستمرت معي محاولة الكتابة الشعرية للمسرح .. وانقسمت منذ اللحظة الاولى الى قسمين متميزين .. احدهما تقليد شوقي بما رحت ابتكره من موضوعات للكتابة الشعرية المسرحية .. والآخر ترجمة شكسبير مباشرة الى الشعر العربي ، بنفس الطريقة التي كتب بها شوقي ، ورحت اتابعه عليها ..

وسوف ارجىء حديث شكسبير ، وصحبتي له الى حين ..

اما تأليف المسرحية الشعرية المباشرة .. فاقف منه عند معالم مميزة .. الاول مسرحية نظمتها عام ١٩٣٦ ، ابان حياتي الجامعية ، وتأثري بموضوع اختلاط الجنسين ، ودخول الفتاة الى معترك هذه الحياة العلمية بصورة بارزة ، ولاول مرة .. وتشتمل على وصف للعلاقات العاطفية بين الشباب من الجنسين ، كما افدت فيها ببعض الحوادث السياسية التي جرت في ذلك الحين .. فهي مسرحية عصرية تماما في وقتها ..

والثاني ، في عام ١٩٤٠ ، عندما اصبحت موظفا في وزارة المعارف ، وسكرتيرا للمراقب العام للنشاط المدرسي ، حيث التقيت للمرة الاولى بالاستاذ الكبير زكي طليمات ، مفتش التمثيل بالمراقبة وقتئذ .. وقد افدت ايما افادة من هذا الاستاذ والصديق ، وهو الذي دفعني للمحاولة الاولى في التأليف المسرحي الجاد ، شعرا بطبيعة الحال ، واقترح علي موضوعا بارزا في البطولات الاسلامية ، هو شخصية خالد بن الوليد .. فرحت اقرأ المراجع في الطبري وغيره ، حتى كونت اول كتابة مسرحية كتبت عن هذا القائد الخالد في العربية في ذلك الحين..

ولكن قبل ان تصل هذه المحاولة الى المسرح ، كان الشاعر الكبير عزيز اباظة ، قد غزا المسرح الشعري عام ١٩٤٣ بمسرحيته الاولى « قيس ولبنى » .. وراح يحتل في جهارة ذلك المكان الذي اخلاه شوقي قبل احد عشر عاما .. على انني مضيت في محاولتي ، واغراني هذا الاتجاه الاسلامي الجديد ، فكتبت مسرحية اخرى بعنوان « الامين والمأمون » .. وقد اخترته بنفسي موضوع الخلاف التاريخي الكبير بين الاخوين ، وعالجته بطريقة مبتكرة اولا ، يمكن ان تعتبر من اوائل المحاولات نحو تأصيل الشعر الجديد .. وقد كنت في ذلك الوقت اناقش مع صديقي المرحوم علي احمد باكثير موضوع هذا الشعر الجديد ، وكيف يمكن ان توضع قواعده ، وكان اكبر همي ان يتمكن الشعر العربي من استيعاب المسرحية والملحمة بصورة فعالة ، متأثرا ومستفيدا مما كنت اقرؤه بكثرة وعمق من الملاحم والمسرحيات في كلية الآداب ، وفي قسم اللغة الانجليزية بصفة خاصة ..

وهكذا قمت بالمحاولة الثالثة ، وهي كتابة « الامين والمأمون » في اواخر عام ١٩٤١ ، وقدمتها في مباراة للتأليف المسرحي ، ما لبثت ان الغتها وزارة الشؤون الاجتماعية ، بعد وقوع حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ المشهور ، وتغير نظام الحكم .. فتسلمت نسخة المسرحية ، ورحت اراجع نفسي ، حتى كتبتها مرة اخرى بالشعر التقليدي ، كسابقتها ، وقدمتها بصورتها الجديدة لمسابقة التأليف المسرحي في وزارة المعارف عام ١٩٥٧ ، فنالت الجائزة ..

اما المحاولة الرابعة التي اقف عندها ، في هذا الحديث ، فتقع

بعد ذلك في اوائل الستينات ، عندما نشرت محاولة القصة الوطنية التي كتبها الرئيس جمال عبد الناصر ، رحمه الله ، في شبابه ، بعنوان « في سبيل الحرية » .. ووصف فيها هزيمة الانجليز امام المصريين في رشيد عام ١٨٠٧ .. وقد قام قصصيون باكمال هذه المحاولة نثرا فنالوا جوائز على محاولاتهم .. ولكني آثرت الاستمرار في الطريق التي سلكتها من قبل ، وهي طريق المسرحية الشعرية ، فكتبت مسرحية « في سبيل الحرية » بذات الشخصيات المذكورة في العمل الاصل ، مع التصرف الذي يقتضيه التاليف المسرحي ، في خمسة فصول كاملة ..

هذه هذه المعالم الاربعة البارزة ، التي اردت الوقوف عندها ، في هذا الحصاد ، لأدل على طريقي في تاليف المسرحية الشعرية .. وهي تغني بالاشارة عن محاولات غيرها .. وارى لذلك من الخير ان اقف عند كل منها وقفة توضيحية قصيرة ..

سميت المسرحية الاولى ، عام ١٩٣٦ عدة اسماء .. فهي «سماء » باسم بطلة القصة .. وهي « اختلاط الجنسين » مرة اخرى .. وقد قدمتها في ذلك الحين الى مباراة التاليف المسرحي ، التي اعلنت منها الفرقة القومية ، يومئذ باسم « صديق الشعب » .. وسجلت في المباراة تحت رقم ١١٣ .. وكانت هذه التسمية الاخيرة تبعا لما ضمنه المسرحية من اشارة لبعض الاحداث السياسية التي مرت بالبلاد يومئذ .. ثم ردت الفرقة المسرحيات لاصحابها . وحدثني في ذلك استاذي الكبير احمد امين رحمه الله ، وهو يومئذ عضو لجنة القراءة في الفرقة ، فشجعني على المضي في هذه المحاولة ، التي مدحها كثيرا امام زملائي .. وتمنى لي ان تكون فاتحة اعمال كبيرة على الطريق ، حتى اخجل تواضعي .. رحمه الله رحمة واسعة ..

تقع المسرحية في خمسة فصول ، ولكنها لا تزيد في ابياتها عن ستمائة بيت الا قليلا .. واذا اردنا ان نساير فصولها ومناظرها ، لنتابع حوادثها بصورة سهلة ميسرة .. فاننا سنجد في الفصل الاول مجموعة من الشباب المثقف ، فتيانا وفتيات ، يجتمعون في صالون زميلتهم سماء .. يتحدثون ، وقد راحت الفتاة المثقفة تقدمهم الى والدها .. فتقول :

دعني اقدم نخبة يا والدي   لمقامك الاسنى من الاصحاب
من اكرم الاسر العريقة محتدا   ونوابغ الفتيان والاتراب

فيقول الوالد مرحبا :

أهلا بصحب سماء ، بل برفاقها   بل بالشباب الناهض الوثاب
اني سمعت الخير ثم رأيتكم   فرأيت ما يدعو الى الاعجاب

ثم يستمر متبسطا معهم في الحديث .. قائلا :

اني أرى بالعين بونا شاسعا   في الفكر بين شبابكم وشبابي
هذا اختلاط لم يتح في عصرنا   من طالبات العلم والطلاب

. . . .

ويلتقط الشاب المرح مراد الخيط .. وعندئذ يجري الحديث منطلقا :

. . . .

الوالد لابنته ضاحكا :

مراد ظريف ، لطيف الدعاب

سماء :   نعم يا أبي ، انه هكذا

الوالد :

بني استمع لحديث الشيوخ   فعند الشيوخ حديث الحجى
لهم من تجاربهم في الحياة   دروس يطول عليها المدى

ويستمر الحديث حول مائدة الشاي .. وتقع احاديث جانبية .. يظهر منها ان شفيقا يحب سماء ، ولكنه ذلك الحب العذري .. اما سمير فينافسه في حبها ، ويخطبها .. واما سماء فرغم مبادلتها الهوى لشفيق ، الا انها حين تخطب لسمير ، فانها تقع في هذا المازق ، وهو الموازنة بين الواقع المادي ، والخيال المجرد ..

سماء (لسمير) :

اتحسب انني ساخون عهدي   واغدر بالمحبة يا سمير
اذا لم تدر ان الحب عهد   يهون امامه الامر الخطير
وكم من غادر في الناس يمشي   له عقل وليس له ضمير

سمير :

بل وازني بين الهدى والضلال   حقيقة العيش ، ومحض الخيال
ووازني بين هوى زائف   وبين سعد وهناء ومال
وانني بعد غد عائد   فانتظريني

سماء :   قد طلبت المحال ..

وفي الفصل الثاني نجد حديثا لطيفا ، بين بعض هؤلاء الزملاء ، وقد تواعدوا على اللقاء مع زميلاتهم .. تحت الظلال الباسقة في حديقة الاورمان بالجيزة .. حيث يصف عزيز ظاهرة الحب ، التي جعلت الشبان يظهرون أمام زميلاتهم في اجمل مظهر واحسن هيئة ..

وظاهرة قد فشت في الشباب   هي الحب ، والحب روح الحياه
وكم من قلوب كصلد الصخور   سرى الحب فيها كوحي المياه
وكم هذبت رجلا مرأة   وكم من فتى .. صقلته فتاه

ويقاطعه زميله مراد ملاحظا عليه :

لعلك تهوى اذا يا عزيز   فان حديثك شعر الهوى

فيجيبه عزيز ليقول في جوابه :

وريحانة الحب يسقونها   بماء العواطف منذ الصبى
فما ذنب قلب .. رقيق الحواشي   اذا لهب الحب فيه سرى
نعيش لآمالنا في الحياة   وليس لنا عن هوانا غنى

ثم يجري بينهما الحديث :

عزيز :

وانت قل يا مراد   الست تهوى نبيله

مراد :

وانت تهوى فتاة   ذكية ، وجميله

مراد :

تدعى كريمة ...

عزيز :

ماذا ؟

مراد :

هل اقترفت جريمه

قد قلت ان عزيزا   غدا يحب كريمه

عزيز :

بل من كريمة دعنا

مراد :

تركتها يا صديقى

فاسمع حديث سماء   وحبها لشفيق

عزيز :

سماء تهوى شفيقا ؟

مراد :

به تجن جنونا

مفتونة تلك بالشا   عر الغريب فتونا
لكنه في انصراف   عن حبها لا يبالى
ما اضيع الشعر ان لم   يجب نداء الجمال

ويقبل بستاني ، ينصح الشابين اللذين ينفقان وقتهما الثمين في الحديقة سدى ، ويلقي عليهما موعظة .. يقول فيها :

يا صاحبي الجالسين بمعزل   ما تفعلان هنا ، وما تجدان
هذا الكتاب تركتماه جانبا   وعمدتما للفكر ، والهذيان
لو تسمعان لناصح لم تنفقا   زمن اكتساب العلم في بستان
قد ضمني الكتاب في عهد الصبى   وحفظتها سورا من القرآن
ادركت من زمني وعهد طفولتي   عصر الامام وشيخه الافغاني
وشهدت احداثا تمر كثيرة   في طيهن مواعظ الانسان

لو لم أمل للهو وهو بلية   لاسير في غيي مع الفتيان
لرأيتماني اليوم رب عمامة   سحر العقول بحكمة وبيان
ان الشباب من الحياة لفرصة   ليست تعوض آخر الازمان

ويظهر شفيق ، ولكنه لا يتحول عن غيه ، ولا يستمع لنصح ناصحيه .. ثم يخرج مع عزيز .. اما مراد ، فيتمنى ان تتحقق امله في ان يجمع بين قلبين هما قلب سماء وقلب شفيق ..

رب وفقني وحقق املي   انما النصر بتحقيق الامل
لست الا مخلصا في سعيه   اتراني ابلغ الامر الجلل
أيجيء الحب عن سعي الفتى   أم تظن الحب مسحور السبل
ليت شعري ان قلبي راحم   كل قلب بلظى الحب اشتعل
انني جربت ايام الهوى   واحتملت الهجر فيما احتمل
وسماء غرة مسكينة   شفها الحب واودى وقتل

. . . .

الوالد اذا يرفض ، والفتاة المثقفة لا تستطيع ان تختار لنفسها الزميل القريب الى قلبها .. وهكذا تقع الواقعة في حديث بين مراد ونبيلة ..

نبيلة :
مراد ، انك تسعى   بهمة لا تصدق
ولا اظن مساعيك كلها ستحقق

مراد :
كيف ؟

نبيلة :
لقد كانت سماء في ضحى الامس معي
كانت تشير دائما بخاتم في الاصبع

مراد :
من ذلك الخاطب ؟ من ذاك المحب المدعي

نبيلة :
تالله ما عرفته

مراد :
وهل سماء قابلته

نبيلة :
خاتمها يدلنا على وقوع النازله

مراد :
لعلها تريد بالخاتم .. ان تشاغله

نعم ، ففي الحق ان سماء كانت تريد ان تشغل صاحبها شفيقا بأمر هذا الخاتم ، ولكنه حين رآه في اصبعها انصرف عنها مغضبا ، بل نصحها الا تفكر في حبهما مرة اخرى ..

سماء نصيحة لاخ وفي   وان نصيحة الاخ لا ترد
فؤادي ليس فيه من مكان   لحبك ، فهو مثل الصخر صلد
وقد وفقت انت الى خطيب   وهذا الخاتم الذهبي عهد
فلا تضني فؤادك دون جدوى   فاني صادق ، والقول جد

ولكنها لا تكاد تنصرف آسفة ، حتى يعاوده الشعور بالخطأ ، الذي ارتكبه في حقها .. ويلوم نفسه على ما فعل ، ويتمنى لو انه حدثها حديثا رقيقا لا يغضبها .. وهكذا يسير في طريق الحب ..

الآن كنت ظلوما   مع الفتاة جهولا
قتلتها بجفاء الحديث .. الا قليلا
ما ضر لو كان هجري القبيح هجرا جميلا
ولم أكن عندما سلمت سماء .. بخيلا
صدقتها الحب لما   شكت الي طويلا
اني سمعت حديثا   عنها كريما نبيلا
ولا اظن هواها   علي عبئا ثقيلا
وانها الفتاة   سمت وعزت مثيلا
اني ركبت عظيما   من الخطاء وبيلا

الحب .. باب الزواج السعيد .. جيلا ، فجيلا
والحب سر الاماني   يحقق المستحيلا
لقد أحسن فؤادي   ذاك الشعور الدخيلا
وقد سلكت أخيرا   الى الغرام سبيلا

وتشتد به الحال ، فيبحث عن الوسيلة الموصلة له الى من يحب.. يسال البستاني ، صاحبه الواعظ ، عن وسيلة تشفيه من دائه :

أتعرف الحب أيها الرجل ؟   تعال قل لي .. فانني وجل
أيعتري فجأة كما فجأت   بروق ليل سحابها هطل

ويصف له الشيخ وصفة عجيبة ، فيرشده الى ضاربي الرمل والودع والدجالين والمشعوذين ..

البستاني :
اذهب لشيخ الشيوخ منفردا   يظله بالمقطم الجبل
تمضي اليه النساء سائلة   فعنده عقمهن والحبل
ويذهب العاشقون اجمعهم

شفيق :
يا شيخ مهلا ، فذلك الدجل
وما الذي يصنع العجوز؟ وما   ذا هو راء ؟ وما هي الحيل

البستاني :
تقدم اسم التي تحب له   وأمها ..

شفيق :
كيف يعمل العمل

البستاني :
يشد حبل الغرام في عقد   وثيقة ، فالقلوب تتصل

وتمضي الاحداث في طريقها التي رسمتها الاقدار ، فيخفق شفيق ومراد في حبهما ، ويجتمعان معا ليتمنى كل منهما الاماني .. ويتذرعان بالصبر ، ليصل كل الى غرضه ، كما هي طبيعة الشعب يومئذ في مصر .. « فالصبر عن شعب الكنانة يؤثر » .. اما شفيق فيخشى ان تفلت الفرصة ، فيعرض امر زواجه على أبيه ، ويخالفه الوالد ، ويختصمان ، لبعد المسافة بين تفكير جيلين .. رجل من الجيل القديم ، فماله والحب ؟ كيف يسيغه او يشعر ولا يبقى امام الصاحبين سوى الاستعانة بالسحر والساحرات ، يحبذ مراد ذلك ، وينكره عليه شفيق اشد الانكار ..

مراد :
فهل أنت مصغ ؟

شفيق :
نعم يا مراد   تعود الى السحر والشعبذه
مراد ، اتسمع للجاهلين   وانت من العلم في مرتبه
نهارك تنفقه في الدروس   وليلك تقضيه في المكتبه
وما زلت معتقدا في الحجاب   تطيل الجلوس على المصطبه
وتغضب ذات الرضى ان اردت   وترضي بافعالك للغضبه
فوالله بينك يا صاحبي   وبين العجائز كل الشبه

مراد :
شفيق ، اتنكر تلك العلوم ؟

شفيق :
نعم ، ويساور نفسي القلق

مراد :
اذا سوف ادعوك كي تطمئن   لاي الكتاب الذي قد صدق
فللسحر كالطب اصل قديم   وفن على فضله متفق
وبالجن قد يستعين العباد   بأمر الاله الذي قد خلق
فعد للكتاب تجد ما أقول   فان الكتاب بهذا نطق
ففي « سورة الجن » .. منه الكثير   وفي « قل اعوذ برب الفلق »

وعلى هذه الوتيرة يمضي الحديث ، ونجد شفيقا في الفصل الاخير ، يعمد الى وسائل من هذا النوع ، دون جدوى .. كما نجد له مواقف عاطفية ، عنيفة احيانا .. لعل اشدها عنفا ، هو موقفه منفردا

عيد الشباب

يا لعيد الشباب في عنفوانه والجمال النضير في ريعانه
قسمات تفيض بالبشر قد غنى لها العندليب في مهرجانه
وخدود ندية قبل الورد بها الجلنار في نيسانه
وشفاه قد لفها الشفق الزاهي بافق المغيب في ارجوانه
ان رأتنا تفتر عن الق الفجر وقد شق جيبه عن جمانه
وقدود في مرطها يمرح الغصن ويختال في شذى رمانه
وخطى خامرت بدجلة اسحاق (١) فامست تشدو على عيدانه
بالخفيف الثقيل بالرمل المنساب بالراقصات من الحانه
تتهادى بين الرصافة والجسر وتغري الرشيد في طيلسانه

يا لعهد الشباب، كم قد نعمنا بالهوى، والشباب في اطروانه
بالليالي الطوال تبدو قصارا . . . .
في حديث الهوى اذا ارتحل الواشي وان حل، في شذى كتمانه
بالليالي القصار تبدو طوالا بالدجى المستبد في ارسانه
تزحف النيرات فيه وئيدا من غميصائه (٢) الى دبرانه
في انتظار الحبيب قد اخلف الوعد وفي الخوف من لظى هجرانه

يا لعمر الشباب ، لو عمر الورد لفزنا بالخلد بين جنانه
ولما بات في الرؤى ذكريات طائفات في الليل حول حسانه
او اماني في الحشا راعشات تتلوى بنا على بركانه
او اهازيج شاعر في القوافي يتقوى بها على سلوانه
ويصد الفؤاد عن جنة الشوق وعن ليلها وعن اشجانه

١ ـ اسحاق الموصلي عميد الطرب ببغداد على عهد الرشيد .
٢ ـ الشعري الغميصاء وهي نجم معروف وكذلك الدبران .

عدن — محمد عبده غانم

متذكرا ، في موضع اللقاء القديم بحديقة الاورمان .. وبيته الفريد الذي يقول فيه :

اقبل منها مكان اللقاء   وان لم انل غير خد الفضا..

هذا جانب واحد من جوانب الحديث عن هذه المسرحية الباكرة ، هو الجانب العاطفي .. الذي يمثل صورة الشباب في انجامعة ، اول عهده باختلاط الجنسين ، كما يعالج جوانب الحياة المختلفة لهذا الشباب داخل الجامعة وخارجها .. وقد مضى الزمن اليوم ، وتغيرت الاحوال ، واصبح ما كان جديدا بالامس ، وهو معدود في اخبار الماضي .. وتتابعت ثورات الشباب في مصر ، وفي العالم العربي ، وفي العالم كله .. ومع ذلك فعندما رجعت الى اصل هذه المسرحية ، بين حصاد الاوراق القديمة ، احسست ـ وانا اعيد قراءتها ـ انني اقع على شيء عزيز ، والتقي بصديق كريم .. وقد نظرت الى ما فيها من استعداد مبكر فعلا كما تفضل الاستاذ احمد امين رحمه الله فبشر به .. ولكن لم يأخذني الغرور ، وما كان ليأخذني طوال حياتي الادبية شيء من ذلك .. لولا انني ابحث عن الحق وحده ، واتمنى اليوم ان اسجله قبل الفوات .. وفي هذا الصدد ، احس حقا ، ان شيئا واحدا كان ينقص هذا الشاب ، الواقف بمفرده على ساحل بحر خضم ، متلاطم الامواج ، متكاثف الظلمات .. هو اليد المخلصة ، التي تمتد اليه .. كريمة ، صادقة ، معاونة ، مرشدة ..

فلندع هذه المحاولة البادئة بذكرياتها ، ولننتقل الى ما جد بعدها من محاولات .. لنرى ما صنع هذا الشاب الواقف بمفرده ، المتهيب للدخول في غمار الناس ..

مصر الجديدة — عامر محمد بحيري

قصة



المصيبة الثالثة

بقلم سلمى لحام العطري

وابنتها صامتة ، آلامها تتكلم بتقلصات وجهها .

احست بسحابة من الدمع تعلو عينيها . قالت لزوج ابنتها :

ـ ان شاء الله هذه المرة تأتي لك « بالصبي » .

ـ هذا شيء لا يهمني كثيرا . سلامة نجاة عندي هي الاهم .

ـ اعرف ذلك تماما .

ولكن ابنتها تريد غلاما ، فهي تحب زوجها وتريد ابنا يحمل اسمه ، ويكون عونا له وشوكة في عيون اعدائه . وهو ايضا يريد ابنا ، وان كان لا يصرح بذلك جهرا ، ولكنها تعلم ما يجول في بواطن الرجال ، وتعلم ان الزوج « لا يضحك سنه الا برؤية الصبي » . والولد يأتي ومعه الحمد والابتسام ، اما البنت فيا حسرة ، تأتي فيصاب جميع الحضور بالخرس والعبوس ، واذا ما استطاعوا ان يتغلبوا على صمتهم ، دارت السنتهم بعبارات المجاملة ، التي لها صقيع الثلج . آه لو انجبت ابنتها صبيا ، انها حتما ستزغرد ، وقد نذرت مولدا للشيخ محيي الدين ، وخروفا للسيدة زينب ، وثوبا وغطاء للصلاة « لام علي » فقد قرات لها الفنجان وبشرتها بأن ابنتها سترزق بغلام يكيد الاعداء ، ويفرح الاحباب . لو تحقق هذا الحلم فستكون ولا ريب اسعد انسانة على الاطلاق ، ولن ترى الصبي لاحد خوفا عليه من اعين الحساد ، وخاصة اذا كان في مثل جمال امه ، وجاذبية ابيه . وستعلق له مصحفا كريما ، اشترته واعدته من اجل هذه المناسبة ، وستتخلص ابنتها المسكينة من سلاطة لسان حماتها ، واهل زوجها . مسكينة ابنتها على هذا الحظ المنكود . صحيح ان زوجها يحبها ويدللها ، ولكن اهله « كعش الزنابير » . وعندما رزقت ابنتها بالمولودة الثانية التفتت اليها « حماتها » وقالت لها بشماتة وقسوة :

ـ ابنتك لا تأتي لنا الا بالبنات ..

آه ما اسخفها .. وهل تأتي بالبنات من عندها ؟ هذا شيء ليس باليد .

ـ امراة عمي .. امراة عمي ..

وشعرت بيد تهز كتفيها . انتبهت ، واحست بالخجل عندما رات زوج ابنتها ينظر اليها بشيء من الضيق ويقول بتأفف :

ـ لقد وصلنا الى المستشفى وانت سارحة ..

ـ اتشكين من شيء يا نجاة ؟

ـ لا ابدا ...

ـ امارات وجهك تتوجع يا ابنتي .

ـ لا يا امي .. كل ما في الامر انني متعبة ، مرهقة .

ابتسمت الام وتذكرت نفسها ، عندما كان يأتيها المخاض ، كيف كانت تتحمل آلامه ، وترفض ان تنبيء احدا به ، حتى يصبح قويا ، فيهزم صمتها ، ويتغلب على قوة احتمالها .

تمتمت الام :

ـ الله يحرسك يا ابنتي ويبعد البنات عنك .

شعرت بوخزة حادة في صدرها ، وتساءلت :

ـ ماذا لو انجبت ابنتها البنت الثالثة ؟

صرخت كل جوارحها :

ـ بعيد الشر ... بعيد الشر .

نظرت الى ابنتها بطرف خفي ، فرات وجهها الابيض ، وقد استحال الى وردة جورية ، وعينيها الخضراوين وقد ازداد بريقهما ، وبدت نظراتها المتألمة ، المتوجعة ، كثيرة الجمال ، شديدة الفتنة . ثم نظرت الى بطن ابنتها المنتفخ بحنان وامل ، ورات قلبها يدعو :

ـ « يا رب تبعث لي صبي » انك كريم ، وعلى كل شيء قدير .

خرجت من الغرفة تتشاغل باي شيء . رات الغسيل ما زال معلقا على الحبال . ذهبت الى الشرفة فجمعته ، ووضعته على السرير ، واخذت تطويه وتملسه بمهارة وقدرة فائقتين ، ولكن حواسها كلها مستنفرة ، مستيقظة ، تريد ان تسمع شيئا . بلغ اذنيها همس انين وتوجع خافت . تركت بقية الغسيل ودخلت على ابنتها ، فراتها تمشي ببطء واعياء وتعض شفتيها ، والعرق يتصبب من جبينها ، ثم راتها تقف باعياء ، وقد ضغطت بيديها على طرفي المقعد بشدة . لم تنتظر الام لحظة واحدة ، بل اسرعت للاتصال بزوج ابنتها ، وطلبت منه الحضور فورا . وشعرت ببعض الراحة ، واحست بمزيج من عواطف شتى تجتاح قلبها ، الالم لآلام ابنتها ، والفرحة والامل بأن تنجب ولدا ، والخوف .. وهنا رات نفسها تستعيذ :

ـ اعوذ بالله .. ربنا فنا شر البنات ، وابعدهن عنا يا عزيز يا قهار .

★

في الطريق اختلست النظر الى زوج ابنتها ، وهو يجلس وراء مقود السيارة ، فبدا لها رائعا بعينيه السوداوين الجميلتين القلقتين . كان بين الفينة والاخرى يلتفت الى زوجه ، وينظر اليها بحب يهدهد آلامها ، وحنان يخدر اوجاعها .

تمتمت ، وكأنها تداري خجلها وارتباكها :

ــ الله يجبر خاطرك بصبي .

لمعت عيناه بفرحة ، وزغردت شفتاه ببسمة .. نعم انها تعلم حقيقة الرجال .. لقد كان زوجها يرحمه الله عندما يرزق بغلام تكاد الدنيا لا تسع فرحته . كان لا يبرح المنزل ويستقبل وفود الاهل المهنئة بنفسه ، ويري الطفل للجميع باعتزاز يشوبه التفاخر ، وينفق عن سعة وعن طيب خاطر . اما اذا انجبت له بنتا ، فكانت الخيبة ترتسم في عينيه بشكل تقطيبة تدخل الحزن والرعب الى قلبها ، فتشعر بالخجل والالم ، وكأنها جاءت امرا مخزيا جالبا للعار . احست بالخوف يطرق قلبها بعنف ورددت برعب :

ــ الله يبعد البنت عنك يا نجاة .

صراخ ابنتها يتسلل من غرفة الولادة فيبعث في نفسها موجات من القلق والخوف . انها تعرف آلام الولادة . وعجبت كيف تتمخض الحياة الجديدة عن آلام واوجاع ، وتساءلت : الا يمكن ان تطل حياة جديدة بدون الم ؟

زوج ابنتها يزرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد شحب وجهه ، وبين الفينة والاخرى ينظر الى ساعة معصمه ، ويتنهد بألم ، كلما علا صوت زوجته بالصراخ .

صرخة حادة مدوية شقت جدران غرفة الولادة ، وانتشرت لتدب القلق والالم في قلب الام والزوج ، تبعتها صرخة ثانية ، ثم صراخ لحياة جديدة .

هرعت الى غرفة الولادة ، غير مبالية بتعاليم الطبيب وتحذيره من عدم الدخول الى غرفة الولادة .

بحثت عن الطفل فوجدت الممرضة تغسله ، ووقع بصرها على الشيء الذي تستطيع ان تتبين به هوية المولود . جمدت في مكانها ، واصابها ذهول غريب ، واحست بشمس الامل تغرب عن قلبها ، فأظلمت نفسها ولم تعد تبصر شيئا .

ــ ويحك ايتها البلهاء هل نسيت ابنتك ؟؟

سألت نفسها هذا السؤال ، ثم التفتت الى ابنتها ، فرأتها شاحبة، قد انهكها التعب وخيبة الامل ورأسها يميل على كتفها بانكسار ويأس .

احست بسحب الدمع تعلو مقلتيها . يجب ان تقول شيئا ، يجب ان تواسي ابنتها وتخفف عنها.

ولكن لسانها التصق بحلقها ، ولم يعد بأمكانها ان تحركه . اقتربت من ابنتها .. شدت شفتيها فانفرجتا على ما يشبه الابتسام . وبصعوبة بالغة جمجمت ببضع كلمات، وقالت بعد لأي :

ــ الحمد لله على سلامتك .

لم تتكلم الابنة ، بل ابتسمت بسخرية ، ثم اجهشت بالبكاء .

الطبيب عبثا يحاول ان يخفف عنها ويريها محاسن الصغيرة ، وهي لا ترى شيئا ولا تسمع شيئا .

نقلت من غرفة الولادة واستقرت في احدى غرف المستشفى . دخل صهرها فتأملت وجهه ، وهو يرغم البسمة على ان تعلو شفتيه ، ويرسم الفرحة بصعوبة بالغة على محياه . قبل زوجته وهنأها بالسلامة ثم اخذ الصغيرة ، وبدأ يعدد محاسنها بمرح مصطنع . تأملته وهي تحدث نفسها :

ــ آه يا صهري ... انك والحق ممثل ماهر ولكن .. لا بأس اكمل دورك ، فلعلك تخفف عن هذه المسكينة بعض مصابها . انه ينظر الى الساعة ويعتذر بلباقة :

ــ ان لديه موعدا هاما . آه لو انجبت له طفلا لترك مواعيد الدنيا كلها وجلس قرب زوجته .

حسنا ، كان الله في عونك لقد اصبحت ابا لثلاث بنات .. على كل حال انت خير من زوجي « رحمة الله عليه » . اذكر انه هددني بالطلاق عندما انجبت له طفلتين متتابعتين ، اذا ما جئته بالثالثة وكأنني آتي بالبنات من عندي .

قطع عليها حديثها مع نفسها سؤال ابنتها :

ــ ارأيت حظي السيء .. ماذا افعل ؟ وماذا ستقول امه وشقيقته؟

ــ وماذا تقولان ، هل هذا شيء باليد ؟ ما انت الا ارض تنبت ما يزرع فيها ...

ــ ابعد كل هذا العذاب تأتي بنت ؟

ــ هناك من يتمنى قلامة ظفرها. المرأة التي تنجب البنت تنجب الصبي .

ــ ومتى انجب الصبي « نملأ البيت حرم حتى يأتي عمر » . انني لشقية تعيسة .

ادارت الام وجهها ، وهي تغالب دمعها وتحدث نفسها :

ــ لا داعي للتحدث عن شقائك فانا اعرفه وقد عانيته قبلك ، كانت كلمات حماي وبناتها كالسياط والسكاكين تقطع اوصالي . ولكن ماذا اقول لك ، وانا اكثر منك شقاء وتعاسة ؟

بكاء الطفلة يعلو . الام تتوسل لابنتها :

ــ ارفعيها يا نجاة وتمعني بحسنها وجمالها ..

ــ يحملها عفريت لا اريدها .

ــ آه وما ذنب المسكينة ؟ هل جاءت بأرادتها ؟

ــ وما ذنبي انا حتى ارزأ بثلاث مصائب ؟

الممرضة تدخل بلباسها الابيض ، كملاك هبط من السماء لتوه . اخذت تهدهد الصغيرة ، وتنقل بصرها بين وجهها ووجه امها وقالت :

ــ انها جميلة لعلها تشبهك .

لم تتكلم ، بل ظلت صامتة ، تكتم غيظها وانفعالها . قالت امها للممرضة ، تحاول ان تفتح حديثا للتخفيف من حزن ابنتها :

ــ ظننت يا ابنتي ان الدنيا تقدمت ، وان الحياة تطورت ،

على مشارف اليوم الاخر

وحين تكف جميع الشفاه ... وتغرق في صمتها الكائنات
وتنبت في كل قفر عيون ... وفي كل عين تلوح رفاة
وتقذف كل الدروب جماج ... م ضاق بها رحب كل فلاة
فلا الوعد يستقطب الناظرين ... ولا الحلم يمنح دفء الحياة

ويزحف فوق البطاح ضياء ... وينجاب غيم وينأى سحاب
ويزهر بين الجماجم وعد ... ويلمع في الافق ومض سراب
وترعش ، بعد ، جفون البرايا ... وتمتد أيد طواها اليباب
وتعمر كل الدروب خطى ... براها الرضىاو نضاها العذاب

فيا ذلك اليوم يوم الرجوع ... تمنيت أنك لا بد آت
تمنيت انك بين الضلوع ... مقيم وانك كالشك عات

دمشق **سلافة العامري**

وباتت البنت مثل الصبي .

تنهدت المرضة ، وادركت جلية الامر :

ــ الدنيا تطورت ، ولكن عقول البعض ما زالت جامدة . لو سألنا انفسنا لماذا نقيم الافراح ، عندما نرزق بالصبي ، والمآتم اذا ما رزقت احدانا ببنت لخجلنا من سخفنا .

ــ « قولي » لها ذلك يا بنتي ، لم يعد الان اي فارق بين الصبي والبنت ، كلاهما يتعلم ويعمل ويكسب ، والبنات اكثر عطفا على ذويهن واكثر برا بهم .

قاطعتها ابنتها بحدة :

ــ شبعت حنانا وعطفا .. لقد اصبح عندي ثلاث بنات .. هل تسمعين ؟

الصغيرة تعود الى البكاء بشدة .

المرضة تضحك معلقة :

ــ انها تحتج . يا للطفلة المسكينة ، ما ذنبها حتى تستقبل بالدموع واللعنات ؟

حملتها وقربتها من الام قائلة :

ــ تأملي محاسنها ..

ــ ابعديها عني والا خنقتها ..

وضعت المرضة الصغيرة في سرير بجانب الام ، ثم قالت لها بهدوء :

ــ اسمعي يا سيدتي . عندما انجبتني والدتي ، وكنت الابنة السادسة ، كادت ان تكون هديتي امي من ابي ورقة الطلاق ، لولا تدخل الاهل . والان هل تصدقين انه يحبني اكثر من اخي الوحيد ويفضلني عليه . وعندما تذكره والدتي بحزنه وغضبه ساعة قدومي الى الدنيا يتمتم بأسف وخجل :

ــ لقد كنت احمق . « الانسان لا يعرف الخير بوجه مين » .

صدقت الام على قولها :

ــ « اي والله صحيح يا ابنتي » .. لنا جارة لها اربعة شبان تزوجوا وتركوها وحيدة وهم لا يأتون لزيارتها الا كالاغراب .

مسكينة انها تبكي ليل نار « قلبها محروق على بنت » .

خرجت المرضة تتبعها الام ، وكأنها تريد ان تتم بقية الحديث ، او لعلها شعرت بحاجة الى ان تخفف مما يدور في خلدها .

الصغيرة تبكي ويعلو بكاؤها ، فلا تلتفت الام اليها ، بل تصرخ بغيظ :

ــ اذهبي الى الجحيم ايتها المتطفلة .

بكاء الصغيرة يعلو اكثر فأكثر .

التفتت الام نحو صغيرتها اخيرا ورفعتها بعصبية ، وهي تقول :

ــ « لعنة الله على البنات من افجرهن » . وضعتها بين ذراعيها ، وتأملتها لاول مرة .

ــ حقا انها جميلة ، ولكن ماذا لو كانت صبيا ؟؟

فتحت الصغيرة عينيها نصف فتحة ، ثم اغمضتهما ، وعادت الى البكاء ، فمرت بيدها على الرأس الصغير ، ذي الشعر الحريري وامعنت النظر في الوجه الوردي الجميل . احست بشيء يجري في عروقها .. شيء جعلها تضم الصغيرة الى صدرها بحنان ، ووجدت نفسها تردد :

ــ « الانسان لا يعرف الخير بوجه من » ...

دمشق **سلمى لحام العطري**



هـلال ناجـي

هلال ناجي من خلال دواوينه

بقلم محمد صالح الجابري

* * *

بين « ساق على الدانوب » اول ما قرأت للشاعر المعروف هلال ناجي وبين « مرفأ الذكريات » آخر ما ظهر لـه مـن الاشعار تنفتح آفاق شاسعة لا مفر للباحث من ان يقف عندها كـي يتلمس نبض هـذه الشاعرية بوعي ويستبطن ما يمور فيها من كوامن اذ بدون ذلك الخيط لا يتيسر تصيد مجال الرؤيا وتحديد زواياها . وبغير تكوين فكرة عـن هذه الآفاق يبقى البحث في حاجة الى الاضواء والى التحديد . فالافق الذي كان مدار تجربة « ساق على الدانوب » لم يكن متفردا بصحـوه ولا كان طابع التلائم يسوده . هناك في ساق علـى الدانوب الواقعية والرومانسية بدتا متشابكتين في زحام وصراع وتجربة الشكل ظهرت في عنف الاستئثار باهتمام أوفر من الشاعر وما ان تأتي « اغنية حزن الى كركوك » ف « الفجر آت يا عراق » حتى يأخذ مدار التجربة في الصفاء والتلائم وتشف حدقة الشاعر وتصبح تلك الآفاق ملكا له ، لوجدان لم يختلج في هذه الفترة بغير المرارة والحنين ابدا لوطن وابناء كان المنفى والغربة بعض من دونهما ومن ثم يخلص تشابك الواقعية والرومانسية وتنصهران ، تذوب الكلمة في الاخرى واللفظة في غيرها بلا نبوة ولا نشاز والشكل هو الاخر يكسب له فرصة الخلاص مما كان يشغل الافكـار والمعاني من بعض قيود القافية . في كلتا الثورتين الاجتماعية والشعرية نجد هلالا يحطم القيد باعنف ما يحطمه شاعر ثائر . اقولها ايضا وهذه المرة بشيء من التجني على ديوان « ساق على الدانوب » بـان حصيلة الثورة فيه كانت مفرطة الحماسة وخس الشاعر فيهـا بـلا تخوم ، الشباب والشعور بالضيم وهما وقوداها لـم يلتقيا بعد بالتجربـة الاجتماعية خصوصا في القصائد الاولى ذلك الالتقاء المركز . ولكن انى لاي منا ان لا يصيخ لاغاني اطفال كركوك واصدائهم وهي تتردد بـين حيطان المنازل . انه عالم الشاعر في الديوان الثاني وانهـا النقلـة الجديدة وفاتحة العهد « في بلدتي » :

ابصرت بالصغار ينشدون
هيهات ان تكـون
بلدتنا الحلوة العيون
عاصمة الذئـاب
موزعي الخراب

ذلك ان اصوات اخرى بدات تصرخ على الطريق :

كركوك لا كان العراق اذا انطفت حرق الجـراح وقهقه الجـلاد

لقد وجد الشاعر ثورته اذن بداية من هذا ، من وجوه المصلوبين واشلائهم ، لامس النار وغاص في اللهب وكمد الحرق والجراح ، لينطلق وهو يشق من جديد بحنجرة ارحب مـن مدى الصحارى طريقـا في الاشواك وعند اسوار القلاع والسجون كانت عين اخرى تفتح لها جفنا على بغداد وتزيد الى المقل المسهدة على رمضاء الانتظار مقلة جديدة ، مقلة شاعر والشعراء في بغداد حلم الرافدين :

الفجر آت يـا عراق	وان يطل ليـل بدجلـه
ما زلت اغمض مقلـة	وامـد في الظلمات مقله
تجتاب استار الدجـى	وتظـل ترتقب الاهلـه
حاشا لشعبك ان يذل	فشعبنـا يأبـى المذلـه
لكنها الاقدار تـز	خر فجر يوم مـا اجله
فاحمل سلاحك لا تقل	طمس الطغاة هدير دجله

وتصل من الشاعر في يوم العيد الى اخيه بطاقة :

كصلاة مـن عبير
مثل رشات العطور
مثلما النجمة في الظلمة تومي وتنير
مثل رف من سنونو جاء من خلف بحور
هذه الاحرف في الشوق صلاة من عبير
وهي في العيد بطاقة
تتحرق
تتشوق . .
للقاء الاهل والاطفال ـ اواه ـ وتقلق
يـا اخي
هذه الاحرف لو تدري اشتياق للقاء
وهي نبع من صفاء
وهي دفقـات محبـة
فاذا ما لمحت عيناك حرفا لا يبين
فتاكـد
ان دمعـه
لحروف الشوق اصباها الحنين
فاستحمت في عبير الحرف وانداحت كموجة
يا اخي ان يسأل الاطفال عني
قل لهم : اني مسافر
ساعـود
عندما ياتي الربيع
موعدي والزهر والاكمام والعطر الوديع
فاذا مـر الربيع
وعلى الافق ضباب ودخان
وتخلفت هنـاك !
وقرأت القلق المشبوب حبـا
في العيون الحلوة السود الحبيبة
قل لهم : اني مسافر
ساعـود
عندما ياتي الشتاء
فيطيب السمر

زادنا النار وحب الكستناء
وحشايا ثمر البلوط في الليل الطويل
واحاديث الصغار المتعة
عن اقاصيص (ابي زيد الهلالي) يا اخي
واذا ما حل عيد
وانا محض خيال في البعيد
قل لهم : اني ارتحلت
لالمّ
انجم الليل واسهم
في انبثاق الفجر في ارض العروبة
ارض بغداد السليبة
واذا طال غيابي وارتحالي
وعلى اوجه اطفالي الصغار
لاح يتم
رسمته اعين لم تعرف الذلة يوما
لا تدع ادمعهم تلثم تربا
فالدموع الغاليات ..
هي كالانجم مثواها السماء
ارشف الادمع عني بشفاهك
فهي بعض الامنيات
في اغترابي
ثم قبل .. قبل الاطفال عني يا اخي

ولست ادري . هل عاد الشاعر لبغداده بالربيع . ام عاد الربيع معه ؟ ان كليهما كان مشوقا للحظة ، وكليهما كان معنى . واكثر منهما الارض التي جلت عديد السنوات ، بالخصب ، وبموكب الفادين . ولكنك وانت تقرأ هذه الاشعار ، تظل تجوس قلبا غاضبا اظلته واحة من الايمان ، تتفيأها الكلمات بضرام ، لم تتركها وقد ازهرت ، واخضلت . ذلك هو هلال ناجي الذي بدأ الشعر ثائرا وما اظن ان تنتهي له ثورة ، فهو من هذا الجيل الثاكل المفجوع :

هذا اللواء اليعربي تظل تحمله البقايا
فاحمل سلاحك لا تقل ضج الطريق من الضحايا

والمتقصي لما في دواوينه الثلاثة الاولى يشترف آفاق انفتاح الشاعر على عالم رهيب يحس بان شيئا ما كان يقع في بغداد في طفولة الشاعر وحتى كهولته :

رداء من الظلماء طال بـه العمر وطاقت به الاكباد واستوحش الصبر

هذا الشيء هو الذي حمل الشاعر على ان يقول :

وحلفت بالفادين ان اثر الهوى والفاتنات الباعثات رغابا

ويحل يوم الثار فتنجو بغداد من القبضة ، وتنسحب المشانق وتنهد الاسوار .

الدواوين الثلاثة سجلت كل ذلك حتى النهاية ، وأكبت المعركة وتابعتها وكانت كتابا كيدا حفظ اروع البطولات واصلدها .

ولكن . هل بانتهائها تقلص وجه الشاعر ؟ هل انتهت الرسالة ومات الشعر على حدود النغم العاصف .

وبالتالي ماذا بقي في لهات هلال ان يقل لنا من خلال « مرفأ الذكريات » ديوان الطواف والترحال ، ديوانه الرابع والاخير . لسبب ما كان هذا الشاعر حتى ايام الثورة جواب موانيء لا تكاد تقرأ له من فينا حتى يطالعك بقصيد آخر من امستردام او اي بلد تتخيل ، يكتب في قلب الجليد وفي سطعة الشمس كما يستطيع على اللجج ان يخط قصائده سواء بسواء وهو في قطار ميونيخ ومن حوله العجائز يثرثرنه بقايا الايام .

ومرفأ الذكريات هو بعض هذه الاشعار التي كتبها الشاعر في المهاجر والاسفار ، لقاءات وامسيات واكف لدنة ، وعيون زرق من باخرة الى اخرى ومن قطار الى غيره :

وقلوع تجيء خلف قلوع في اقتران الطبيعة الخلاب

حتى اذا اقتحم محطات وثغورا جديدة كان لا يني يهتف هتافه الدائم اجابة على سؤال يراه يتردد في عيون الاغراب :

انا من موطن قناديله الشهب باجفانه يلوذ الغروب
يلثم البحر كفه في خشوع والثريا على ثراه تذوب
وعلى ثغره نهير لحون صاغها في كرومنا عندليب
مشرق الجود من سهول بلادي وباحضانها يقر الغريب

وتلتفت احداهن وهي قادمة من فنزويلا الى القامة المديدة السمراء وهي تستعيد وجه الصحارى والبحار النائية على شفتي شاعر صادي :

انا ما ابصرت من قبلك نجما عربيا
يتعالى كالثريا
وبين ما تجيء به شفتان وشفتان :
ومضينا نزرع الافق نجوما
وغيوما
وكما ينبثق الفجر بثغر من كراز
همست (انجن) في صوت منغم
غنني لحنا من الشرق جميلا
غنني لحنا ، فغنيت قليلا
لحن فيروز وقد جاء القمر
(بيته خلف التلال المرمرية
رشرش المرجان في كل ثنية)
ثم ابحرت بعينيها طويلا ...

وسرعان ما يتهاطل الظلام والجليد ، ويرن اعوال باخرة ضلت في متاه البحر فتحاول حلوة اخرى ان تفر فرقا من هول لقاء صاخب في مرفأ جليدي . ولكن الشاعر الصحراوي يربت على كتفيها ويبتسم مطمئنا :

اقول للحلوة في همسة
وعينها في الغيم مذعورة
الشمس في جيبي فلا تقلقي
الشمس في جيبي
ساطلق الشمس من القمقم
ان شئت في الفجر
او شئت في منتصف الليل
فالشمس في عبي
والشمس شرقية ؟
في غير ما مرة
حجبتها عن لندن الساحرة
اذا خلفت حسناء ميعادي
فلتحذري يا برعم النروج
نسيان ميعادي ؟

اترون ماذا يصنع هذا الشاعر في بلاد الناس ؟ يسرق منا شمسنا يخبئها كالكمك في جيبه ليطعمها صبيات لندن مرة وبنات النروج مرة اخرى .. ويصيرها في السموات الغائمة خلف البحار نهارات مضيئة . انه الصائد الذي عرف الطعم فترك كل واحدة تلهج عند المذاق

ليتني ليتني عرفتك قبلا في ليال من الفراغ خوابي
منذ شهر وفي عيونك برق شاعري يدق في الليل بابي

ثم ترفع عينا لتقول في تدله :

يا حبيبي وذات نصف كلام في شفاهي ونصفه في الجواب

الشاعر لا يشبع له نهم ما دامت الشمس في جيبه عملته التي يصرفها كما يشاء وما دامت ابواب الموانيء والمرافيء مشرعة :

ايتها الحلوة
فلتطعميني موعدا اخضرا
مثل جبال النروج الحلوة

مخضرة رائعة الجلوة
او فابعثي من عينك الحالمة
قلعا شماليا ليطويني
يحضنني كالموج يحويني
مرساي فيه ثغرك الاحمر
وربما مرساي ياقوتـه

. . . .

ياقوتـة حلـوة ؟
فتبسم الحلوة
في شبـه تفريدة
ويستحيل الحلم انشودة ؟

ان الكثيرين سيتوهمون ان الشاعر انما تنصل مـن آفاقه الماضية وفر عامدا من المعترك وانجرف مع التيار الآخـر تاركا خلفه بغـداد والدواوين الثلاثة الاولى التي كتبها من قبل لاطلالة فجرها تنام في صمت الواحة وتتوسد افياء النخيل تصنع قدرها وايامها وحدها . سيقولون ان المرافيء شغلت هلال عن احب الناس الى قلبه عن الاهل والاخـلاء واضاعت الشاعر في فتور الجليد وسماء لندن الكابية الدكناء . ليسمع هؤلاء هذا النشيد :

يـا شقيقي
انـا في لندن اشتاق اليك
وانين خافت من قلب امي
يقرع السمع ويدمي
يذر الايام سوداء حزينة
ويحيل الفجر ليلا نابغيا
مبضع الجراح يقتات عليها
ويظن الداء في الجسم المسجى
او تعلـم
انه الداء المكتم
في حنايا قلبها الضاوي الحزين
من جراحات السنين
من حنين كله شوق اليك
ايها الراحل من دون وداع
انهـا محض التياع
لخيال منك للطيف المرجى
يا ربيعا شق عن بغداد اكفان الشتاء
ومضى دون وداع

الى كل مكان . الى المقاهي والمرافيء وانى سار كان نشيده هذا، الاغنية التي لا تبرح لسانه ولا تفارق صدرا مكلوما . حتى وهـــو في ساعة رائقة مع حلوة :

تسائلني حلوة عن بلادي
ومن اين جئت .. وفيم الدموع ؟
قصصت لها كيف عاث الظلام
باعطاف بغدادنا الحالمة
ففي كل دار نواح ومأتم
وثـار ومفرم
حكيت لها حلم الشاطئين
بفارسنا المقبل الظافر
بمن يبذر الحب بعد الصقيع
ويحيي الشجر
ويزجي المطـر
لبغدادنا الظامئـة
حكيت لها عن حكاياتنا
وعن فارس مثل عمر الزهور
ولطف القمـر
تالق في ليلنا المعتكر
وكيف مضيت بقلب شجاع
تـدك القـلاع
على ظهر دبابة زاحفه
وانك غبت بدون وداع
شقيقي : وحين رنوت اليها
رايت الدموع
تساقط من اعين كالبحار
كما النجم يهبط في اللاقرار
بغير انتظار
بغير انتظار

وهو حتى مع قادمة من قلب الجليد من آيسلنده يقول :

ايها القادم من قلب الجليد
او تـدري
انني احببت في عينيك غابات النخيل
انني عانقت في عينيك نجمين اضاءا
خلقا الفجر ببغداد وضاعا
كل نجم منهما عين شقيقي
يـا رفيقي

أن المرفأ الذي اودعه هلال ناجي كل ذكرياته . واعطاه كل هـذا الشعر هو مرفأ الجراح والتذكار حيث تثوى صورة شقيقه وجـدي . وهو مرفأ الحنين الى بغداد ذلك الطيف الذي لم يغادر قصيدة مـن قصائده . الترحال عند هلال ما كان فرارا ولا هجـرة ولا هربا ممـا ينتظره من اتعاب البناء انه شيء عميق كمحبة الوطن العربي .

بغـداد — محمد صالح الجابري

انظري

انظري ، لـم تبـق الا نظـرة
تحتمـي ، ان أشرقت ، بالحـذر
وأطيلـي نظـرة منعشـة
تبعث الهـول بصـرف ....
قنعـت نفسي بطـرف مفصـح
لـم يجـد الا بأبهـى الـدرر
قـال لـي طرفـك مـا أعهـده

في التـي كانـت ضيـاء البصـر
قـرة العينـين يـا حاضـره
وهـي كالطيف كـأن لـم تحضـر
نشتهي الوصل ، ولكـن دونـه
لذعـة النـار ، ووخـز الابـر
فـرض اليـأس علينـا غربـة
لـم تنـل مـن وجدنـا المستعـر

بغداد — حارث طه الراوي

ربيع وريقتها

●

رف الربيــع بجنحيه على داري ... معشوشب الحقل رفافا بأزهـار
بيضاء ناعمــة رقــت ملامحها ... ولاح فيهــا شعاع واري النـار
وشّى ذوائبهـا من لسنه وبدا ... فـوق الجبيـن كاكليل من الغار
تجمّع الزهــر عنقودا يتيــه به ... فــرع وتحملـه اعنـاق اشجار
والورد زركشه كف النسيــم له ... حضــن يهدهده من خلف استار
هــذي ملثّمة حمـراء خـائفــة ... خجلــى تباعــد من لحظ ونظار
من اصفر هــائم يروي بهمهمــة ... لحــن الغرام لهـا اشواق ثرثار
والهمس مشتعل في السر يولعــه ... ارهــاف اذن واحداقات سمــار
وياسمين رنــا يختـــال متكئـا ... يحكي البدور اذا أسرت بأسحار
تهفو النسائم من شوق لتحضنه ... ولهى وتلثمه فــي جيده العاري
وللفصون اذا وافت صبــا نغم ... عذب يوقــع في رقصات اطيار
ورد وزهر ، فراشات مرفرفــة ... فــي ألف لــون حبتها الف انوار
تواثب الطــل يعطيهــا مراشفــه ... .
والشمس فوق الربيع الطلق رائعة ... دفء تنــاثر من اضلاع عشتــار
حتىاذا الريح وشّت جانبيه قذى ... هبت تفسّله احــداق امطـــار

يا للربيــع أتانيفــي وريقتهـــا ... سحرا يضوع على دربي واوكاري
منضــرا كورود الفجــر انجمــه ... مخضوضل العطر بواحا لاسراري
نيــروز جــاء من الآفاق اغنيــة ... والوقــت بعد غريب عنه آذاري
وبين احرفها والصوت يخمرنــي ... والهمس يسكــرني آهات مزمار
لاحــت بمكمنهــا حسناء فاتنــة ... ترنــو الــيّ بعينيهــا كانــذار
قالت : اراك مع الآلام منسجمــا ... فهل انست الــى الآلام والنــار
نسيتنــي وتركت البعد يوجعني ... ورحت تهزج في دنيــا واشعار
فهل وجدت بــأهات الهوى ... ... بيــن تسيــار وتسيــار
وتختفي في رداء الحرف فاتنتي ... دلا وتتركنــي اشبــاح محتــار

يا لفتة الحسن مالي والعذاب يد ... لكــن مخالبــه هبت كاعصـــار
لفّت جناحــي وشدتني لساحته ... وخلفتنــي لآلامــي واقــداري
ان كنــت آنسه انت التي خلقت ... امواجه ورمت بــي شطر هــدار
غــارت علي مــن الآلام تكلـؤنـي ... أكــان حظــي ان اجزى كسنمار
لهفــا فؤادي بعيد الدار نازحها ... حتى الهموم تــراها خدن منهار
يارفة الحسن رحماك الغريب انا ، ... انا العذاب مــن الانات اوتاري

دمشق

عبد القادر القصاب



فؤاد الرفاعي

على احمرار الشفق انتهوا...

اضاع اسلافنا فردوسهم في المغرب ، فهل نضيعه نحن في المشرق ؟ لعبت العصبيات القبلية بهم دورها الخطير فمزقتهم ، فهل تحطمنا عصبياتنا الاقليمية اليوم وعنعناتنا الفارغة ؟ ..

بقلم فؤاد الرفاعي

* * *

كلا .. هم لم يناموا بدء الامر على حرير ، بل عجنوا بعزمهم الصخور حتى ذلت لهم رقاب العصور . وكما كانت قصة الفتح العربي لشبه الجزيرة الاندلسية من أروع قصص التاريخ البشري ، كانت نهاية الدولة العربية في الاندلس من اشجى واخطر ما سجله تاريخ العرب خلال مسيراتهم التاريخية في دروب الكفاح . وفي رأيي ان قراءة التاريخ ليست ، بل هي لا ينبغي ان تكون ، للمتعة والتسلية وتتبع الحوادث لارتشاف عناصر القصص الرافدة للاخيلة التي تهوى الطيران آفاق الضباب ... وانما هي القراءة الواعية المدركة المستأنية التي تربط ما بين النتائج والمقدمات لتحليل المواقف التي تؤدي الى انفجار الاحداث الكبار او تشارك في صنعها . فتلك الاحداث الكبار لا تنجم من الارض من تلقاء نفسها ولا تنزل من السماء نزولا ، وانما هي في طبائع الاشياء ، وليدة ظروف سبقتها فجعلت حدوثها شيئا حتميا في منطق ارتباط المقدمات بالنتائج عند استخلاص الآثار التي ترتبت او تترتب على تلكم الاحداث .

والحق ، ان قصة الفتح العربي للاندلس انما ينبغي ان يقرأها الجيل الحاضر على تدبر وأناة وعمق ، وان يغوص في غمراتها المثيرة ليستخرج منها أبرز العبر التي توسع آفاق الرؤية ، وتعمق مسارب الوعي ؛ وتفتح العيون والقلوب والاذهان على حقيقة من ابرز حقائق التاريخ بداهة ووضوحا ، وهي ان المحافظة على الكيان القومي لا يمكن ان يكون فقط بالقول المصفوف والكلام المرصوف ، ولا بالشعارات المنصوصة والخطب المرصوصة .. بل بالكفاح الدائب الواعي المستمر المخطط له ، الذي يستهدف قبل كل شيء تمتين روابط المجتمع من الداخل ، بحيث يقوى على مواجهة الاحداث بما يجب أن تواجه به من قوة متماسكة لا تفلها المفاجاءات ولا تقوى على تحطيمها القوى المضادة .

وما كان لي ان اعرض لتاريخ الفتح العربي في الاندلس وانهيار الدولة العربية فيها لو لم يكن هناك تشابه ــ من بعض الزوايا ــ بين ما نواجه اليوم من خطر اجتياح صهيوني استعماري شرس لكياننا القومي ، وما واجهه أسلافنا منذ خمسة قرون في تلك الجنة الشجراء من احداث مدمرة ما انفكت تنمو امامهم وتكبر وتتعقد حتى خرج الامر حيالها من ايديهم ، وحتى انتهت الى طردهم من ذلك الفردوس المفقود ، ثم الى التنكيل بمن بقي منهم تنكيلا تطأطيء الاخلاق خجلا امام وقائعه المخيفة ومنكراته المفظعة .

ترى ، ألم يحدث أن أعاد التاريخ نفسه وكررت الاحداث ذواتها ؟ ألم تتشابه ظروف لاحقة بظروف سابقة فاذا النتيجة هي نفسها والمآل ؟ بلى ، لقد أعاد التاريخ نفسه كثيرا سواء في شرق او في غرب ، وتكررت ظروف وملابسات متماثلة في تاريخ الامم بعينها فأدت الى فنائها وانقراضها .

وانما تكون العبرة في وعي الشعوب لتلك الظروف والملابسات ، وتحليلها ، والاحساس العميق بها ، ورفضها ومقاومتها ، ولا سيما اذا كانت هي امتدادا تاريخيا لوجود امة واحدة وشعب واحد ، .. والا فلا فائدة من قراءة التاريخ ، لانها انما تغدو ــ حين لا تستخلص العبرة منها ــ لونا من ممارسة الترف الحائل وضربا من تزجية الوقت بما لا يفيد .

لقد اقام العرب في شبه الجزيرة الاندلسية مدنية رفيعة العماد ، اعطت شعوب الغرب دفقا سخيا من الاشعاع الفكري والتقدم الحضاري ، وطاولت الزمن على مدى ثمانية قرون بفكرها وآدابها ، وبعمرانها وشموخها ، مما لم يستطع حتى اكثر المؤرخين الغربيين تعصبا لغربيتهم الا ان يقروا به في فلتات هاربة من حقدهم وتعصبهم ، وهي فلتات تعكس لنا ــ بالاضافة الى ما دونته الروايات العربية ــ صورا زاهية ولوحات رائعة

للذي كان عليه القوم في ذلك الفردوس المفقود من ترف ونعمى ، ومن عزة ومنعة ، ولا سيما على عهد الخلفاء الامويين ، بدأ بالداخل عبد الرحمن وانتهاء بالناصر سميه ، ثم امتدادا مترنحا الى من أتوا بعدهما من الامراء والقادة والوزراء الذين استطاعوا ــ بعزمهم وجهادهم ــ ان يؤجلوا نهاية السقوط اكبر قدر مستطاع من الحقب والفترات، كالذي كان من ملوك بني الاحمر اصحاب غرناطة، الذين ثبتوا على معاناة قاسية يقاومون النهاية الفاجعة زهاء مئتين وخمسين عاما ، كان عدوهم خلالها ما يفتأ يكيل لهم الضربات القواصم ، فيقابلونها بمثلها او بأشد منها مضاء وتحديا .

وليس يهمنا هنا ، في هذا المقال السريع ، ان نتعقب وقائع الفتح وان نسير مع الفاتحين منذ اجتاحوا المغرب الاقصى حتى جازوا بحر الزقاق الى الجزيرة الخضراء . ولكن الذي يهمنا هو ان نلمس ما كان في نفوس القوم من آثار محرقة حين ضاع منهم ذلك الفردوس ، وأن نستخلص العبرة منها ، ثم ان نقف على عوامل النكبة العربية واسبابها في شبه الجزيرة الاندلسية على امتداد ثمانمئة عام ، ما كان لها ان تنقضي لتصبح صحفا هاجعة في بطون التراث او لوحات معلقة في متاحف التاريخ لولا تقاعس النفوس عن رد الخطر المحدق حين كان ينبغي للنفوس ان لا تتقاعس ولا تلين .

فأما تلك الآثار المحرقة ، فتصورها لنا تلك الزفرات العميقة التي يصعدها أسى مسعر وشوق مضطرم وندم ممزق وحنين يقطع نياط القلوب . وقد ورد بعضها على ألسنة عدد من شعراء الفردوس ممن ادركوا النكبة او آل بهم امرها وحتمياتها الى التشتت والضياع في دوامة الاحداث التي ترتبت على ذلك الحدث العربي الاليم .

قال احدهم فيما يشبه زفير الاسى من جحيم حس مفجوع :

سلام على اهل الوداد وعهدهم   اذ الانس روض والسرور فنون
رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا   ففاضت لروعات الفراق عيون

وقال آخر وقد جعل من الحرف روعا ومن الكلمة دمعا :

يا زمان الهوى عليك السلام   وعلي السلو عنك حرام
اي عيش قطعته فيك لو دام   وهل يرتجى لظل دوام
كنت حلما والعيش فيك خيالا   وسريعا ما تنقضي الاحلام
لهف نفسي على ليال تقضت   سلبتني برودها الايام
فطمتني الاقدار عنها وليدا   وشديد على الوليد الفطام
لا تلمني على البكاء عليها   من بكى شجوه فليس يلام

اما قاضي القضاة ، الشمس بن خلكان ، فيخاطب الديار المغتصبة بهذا الشجو المعتصر للقلب وهذا التذكر المفجر للحنين ، ويتمنى لو عادت ايام تلك الديار حتى في خداع الاحلام ، قال :

يا ديار الاحباب ما زالت الاعين   من ترب ساحتيك مذاله
وتمشي النسيم وهو عليل   في مغانيك ساحبا اذياله
اين عيش مضى لنا فيك   ما اسرع عنا ذهابه وزواله
حيث وجه الزمان طلق نضير   والتداني غصونه مياله
ولنا فيك طيب اوقات انس   ليتنا في المنام نلقى مثاله

وتأتي زفرة الخطيب الحصفكي لتكثف ظلال الصورة وتزيد من تجهم خطوطها وتعتيم الوانها وهو يتصور ضياع الراحلين وحرقات المتفارقين :

ساروا واكبادنا جرحى واعيننا   قرحى وانفسنا سكرى من القلق
تشكو بواطننا من بعدهم حرقا   لكن ظواهرنا تشكو من الغرق
كانهم فوق اكوار المطي وقد   سارت مقطرة في حالك الغسق
دراريء الزهر في الابراج زاهرة   تسير هائمة في غير ما نسق
يا موحشي الدار مذبانوا كما انست   بقربهم لا خلت من صيب غدق
ان غبتم لم تغيبوا عن ضمائرنا   وان حضرتم، حملناكم على الحدق

هذه قطرات ضئيلة قليلة من بحر زاخر صخاب حفظته لنا الكتب عن تفجع القوم وتمزقهم وضياعهم ، ثم عن عرضهم آخر بضاعة لهم في سوق الشماتة التي نصبها لهم اعداؤهم فوق الرؤوس ، وهي بضاعة البكاء الذي لا يملك العاجز المقهور الفاقد لكل امل الا ان يفزع اليه ليخفف به عن نفسه ألم البلوى وحرقات العذاب ، برغم انها لا تغني عنه من واقعه المهين شيئا ..

لقد تساءلت قبل قليل حين قلت : ترى ألم يحدث ان اعاد التاريخ نفسه عبر القرون وكررت الاحداث ذواتها ؟ انه تساؤل أقصد اليه قصدا ، واريد من كل مواطن عربي في كل بقعة من ديار العرب أن يطرحه على نفسه وهو يطالع تاريخ الفردوس المفقود ، او اي تاريخ آخر لامم الارض التي انقرضت وبادت ، وان يجيب عنه جوابا مستقرأ من التتبع الواعي لاحداث التاريخ وتقلبات الايام . ولا ريب في ان مقارنة ما حدث في الاندلس قبل خمسة قرون خلت بالذي حدث ويحدث الآن في شرقنا العربي من هجمة صهيونية استعمارية ضارية باغية ، انما هي مقارنة مع الفارق برغم تشابه الظروف من بعض الوجوه . فنكبة الاندلس ، وان اعتبرت في ذلك الحين ، والى الآن ، كارثة قومية ودينية مفظعة ، فانها كانت ــ من وجهة نظر التاريخ ــ تراجعا يكاد يكون طبيعيا لفاتحين مجتاحين لم يدفعوا الاخطار المتجمعة حولهم ، ولم يقطعوا دابرها من الاساس ، الى ان نمت ، وغلظت ، واستفحل امرها ، وواجهت القوم بما كانوا عن دفعه عاجزين .

اما الخطر المحدق بنا اليوم ، فيستهدف اقتلاع جذورنا من وطن نحن اهله من آلاف السنين ، وهذا ما ينبغي ان نضعه نصب اعيننا آناء الليل واطراف النهار، وان نعمل بوعي على درئه والقضاء عليه ، بشيبنا وشبابنا، بنسائنا واطفالنا وكل ما تملك ايدينا وتصل اليه قدراتنا، لكيلا يصيبنا ما اصاب عرب الاندلس من كوارث تقشعر لها الابدان ويعجز عن وصف دقائقها وشناعاتها أفصح الوان البيان .

ولا يقولن قائل ان اسرائيل اعجز من ان تبسط اغتصابها المجرم على ارضنا العربية ونحن اكثر من مئة مليون عربي ، معللا ذلك بضآلتها الى جانب كثرتنا . ان

هنا القول يحمل في داخله اخطر تفاؤل منا عـــن تحليل الظروف الموضوعية التي تحيط بنا ثم عن التصدي لتلك الظروف واحباطها ، وهو يهدف بالتالي الى تهوين الخطر والمضاءلة من آثاره ونتائجه ، وهذا بالضبط مـا تريـد اسرائيل ان يسقط فيه المواطن العربي ، لينام متفائـلا عن الخطر ، ثم لا يستيقظ الا وقد خرج الامر من يده ، فلا يملك بعد ذلك غير التفجع والدموع ، كما فعلت جموع اسلافنا التـي طردت مـن الارض الاندلسية بؤوس الحراب .

ولئن كنا نسمع اليوم باستعدادات طيبة تقوم هنـا وهناك في الاقطار العربية لمواجهة الخطر ودرئه ، او كان يهزنا جديد من اعمال الفداء الجريح .. التي تقوم بهـا ابناء شعبنا في فلسطين او على مشارف الارض السليب ، فان ذلك لا يعد كافيا الكفاية كلها . ذلـك لان الصهيونية ليست ـ بقوتها البشرية وحدها ـ هي التـي تستهدف استصفاء كياننا كما وضح حتى الآن . فهناك الى جانبها ـ وقد فرغنا من ادراك ذلك وتحسسه حتى العظم .. ـ استعمار شره متحفز ، استطاعت الصهيونية ان تجنـده وتستخدمه ضدنا فيما تشاء من اغراض ، وهذا ما يجب ان نحسب له الحساب الذي يضارعه خطرا واثرا ووشيك نتائج ..

ان علينا ان نضع في الكفـة المقابلة للصهيونيـة والاستعمار من الميزان ثقلا من قوانا الذاتية قبـل كـل شيء ، بحيث تصبح كفتنا هـي الراجحـة ، فتعلم الصهيونية ويعلم حلفاؤها ان العرب لا تؤكل لحومهم بمثل السهولة التي يتصورون .. ان وضع قوانا الذاتية في كفة عشنا اخطاره ومنزلقاته وما نزال نعيشها ، قد كان كافيا الميزان ، يعني ان نقتنع بداهة بأن التفكك المخزي الـذي حتى الآن ، بل هو قد اربى على طاقة الصبر والانتظار وعن كل ما يدعو اليه تسامح او تساهـل او تفاؤل .. ومن هذا التفكك المريع المخزي هزيمتنا الحزيرانية الاخيرة التي ينبغي ان تكون قد فتحت عيوننا جميعا على انواقع بكل اخطاره في مشرق وفي مغرب ، وطردت منهـا آثار التفاؤل والتواكل والقعود ..

ولئن كان لاجدادنا في الاندلس بعض العذر في صنع النكبة التي واجهوها منذ خمسة قرون ، فان العذر انما يجوز لهم مع اقصى درجات التسامح حين تقـارن بـين ظرف وظرف وبين عصر وعصر . اما نحن فلا عذر لنا البتة في صنع مقدمات نكبتنا الحاضرة التـي لا ريب في انهـا ستستكمل جميع عواملها ومسبباتها اذا نحن ظللنا على هذا التمزق المريع الذي نشهده في صفوف امتنا الواحدة . ان الزمن لا ينتظرنا حتى نفرغ من تحليل اسباب تمزقنا ، وان النكبة لا تتوقف ـ لاجل خاطرنا .. ـ عند منعطف من الطريق المفتوح حتى نقـوم بعملية تقييم شامـل لامكاناتنا وقوانا . فالاحداث تكر والايام تمر ، وما يمكننا تداركه اليوم قد يكون تداركه في غـد مستحيلا ، ولـن ينجو من النار ولا من العار كبير او صغير .. وانما هـو



امـل

دنت العـودة يـا يـوم المنـى
ففافتحي الاذرع يـا ارض لنـا !
سيلـين الصخـر مـن فرحتـه
ويمـوج السهـل ترحيبا بنـا
ورفيق العمـر ذاك الازرق الباكي
سيشـدو للصبايـا حولنـا

وقفـة فـي ذلـك المعبـد فـي
ذروتـــه .. فـي المنحنـى
وقفـة لا تنسـي ذل الامس
عـار الامس .. غني يـا دنـى

الرابية ـ لبنان — اسمى طوبي

حريق تاريخي عارم وعار قومي طام ، يتناول الوطن الكبير المهدد من اقصاه الى اقصاه .

ولعلني احسن صنعا ان اعرض في ختام مقالي هذا للوحة حزينة من نهاية كياننا في الاندلس ، رغم انها لوحة يكاد يعرفها الجميع ، فان في عرضي لهـا تأكيدا لمعنى النكبة التي واجهها اجدادنا ونواجه اليوم نحن نكبة اكبر منها ترويعا . ففي عام ٨٩٨ للهجرة ، اي بعـد ثمانيـة قرون من عام الفتح ، هاجـم الاسبانيون غرناطـة ، وحاصروها ، فثبتت قليلا ، ثـم انهارت وشيكـا حين نفدت أقوات اهلها واكتسحهم اليأس والمرض والخوف ، فلم يجد ابو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الاحمر بـدا من الركوع والتسليم للغالبين .

قالوا ، وحين سلم مفاتيح قصر الحمراء ، وخـرج منه مع اهله ذليلا بائسا الى منفـاه ، مشى في الطريـق مطرق الراس منسحق الاحساس ، حتى اذا انعطفت بـه الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنـه في غمرة الشفق بقبابها وابراجها وبواسق اشجارها ، تلفت اليها ، وارسل عليها نظرة وداع اخيرة ، ثـم بكـى . وكانت امه عائشة تسير الى جانبه ، فبادرته بقولها :

ابك مثل النساء ملكـا مضاعـا لم تحافظ عليه مثل الرجال ..

وهكذا اقفر الربـع ، وصوح الروض ، وخرس الطير ، وتبدلت الارض ، وغام منعطف التاريخ :

وصار ما كان من ملك ومن ملـك كما حكى عن خيال الطرفوسنان

فهل نعتبر ؟.. هل نعتبر ؟.. ام ان القـول الكثير المرسل قد افقدنا الاحساس بالخطـر الداهم والمصير الخطير ؟

الكويت — فؤاد الرفاعي



محمد العدناني

معجم الاخطاء الشائعة

بقلم محمد العدناني

***

نموذجات من حرف الكاف

ملأ الكاس الفارغة

ويخطئون من يقول : ملأ الكاس الفارغة . ويقولون ان الصواب : ملأ القدح الفارغ ، او الزجاجة الفارغة ، أو الاناء الفارغ ، لان ابن الاعرابي قال : لا تسمى الكأس كاسا الا وفيها الشراب . ونقلت جل المعاجم رأيه هذا ، وأضاف التاج قائلا : الكاس الاناء يشرب فِيْـــه ، او ما دام الشراب فيه .

وقال أبو حاتم والاصمعي وابن عباد : الكأس الشراب بعينه .

وقال ابن سيده : الكأس : الخمر نفسها اسم لها .

واكتفى الصحاح والمصباح والوسيط بايراد قول ابن الاعرابي .

وحاكى متن اللغة والمحيط ومحيط المحيط التاج في قوله .

ونستفيد من هذا الاختلاف بين آراء أئمة اللغة عندنا ، لنجيز استعمال كلمة (الكأس) في حالي فراغها او امتلائها بالشراب .

وحبذا لو تضافرت جهود مجامعنا كلها لوضع معجم دقيق مفصل، لا غموض فيه ، ولا تردد في تعيين ما تدل عليه كلماته .

والكأس مؤنثة ، وقد ذكرت ست مرات في آي الذكر الحكيم . (راجع الآيتين ٤٥ و٤٦ من سورة الصافات) .

كاتو (جاتو)

ويقولون : أكل قطعة كاتو . والصواب : أكل فرنية (بضم فسكون فكسر فتضعيف) . وفي التاج واللسان : الفرنية هي الخبزة المستديرة العظيمة ، التي تروى لبنا وسمنا وسكرا . وقد اطلقها مجمع دمشق ، في الجدول رقم ٦٤ ، على الكعك المسمى بالبسكويت . ووافق عليها مجمع القاهرة في معجمه (الوسيط) وقال انها كلمة مولدة ، وجمعها فرني (بضم فسكون) .

كبده عناء

ويقولون : كبده (بتضعيف الباء) عناء شديدا . والصواب : حمله (بتضعيف الميم) عناء شديدا ، او : جشمه (بتضعيف الشين) عناء شديدا .

وفي المعاجم : من المجاز قولنا : كبدت (بتضعيف الباء) الشمس، او النجم السماء ، أي : صارا في كبدها ، او كبيدائها ، او كبيداتها ، أي : في وسطها .

تكبد نصبا

ويقولون : تكبد في سفره نصبا عظيما . والصواب : كابد في سفره نصبا عظيما ، أي : وجد مشقة وعذابا .

ويقال : كابد الرجل الليل : اذا ركب هوله وصعوبته ، وكابد الامر كبادا ومكابدة : قاساه .

أما الفعل تكبد (بفتح ففتح فتضعيف) ، فمن معانيه :

١ – تكبد الفلاة : اذا قصد وسطها ومعظمها (مجاز) .

٢ – تكبدت الامر : قصدته .

٣ – تكبدت الشمس السماء : صارت في كبدها ، أي : وسطها (مجاز) .

٤ – تكبد اللبن وغيره من الشراب : غلظ وخثر ، وصار كأنه كبد يترجرج .

كتب وثياب الرجل

ويقولون : احضرنا كتب وثياب الرجل . والصواب : احضرنا كتب الرجل وثيابه ، لانه لا يجوز هنا ان نضيف اسمين الى مضاف اليه واحد .

ولا يجوز أن نحذف المضاف اليه الأول ، الا اذا دل عليه المضاف اليه الثاني المذكور . كقولنا : انفقت ربع وخمس راتبي . أي : أنفقت ربع راتبي وخمس راتبي . فقد حذف هنا المضاف اليه الاول بعد ان تحقق الشرط المطلوب ، وهو وجود اسم معطوف (خمس) ، وهذا المعطوف عامل في لفظ آخر هو (راتبي) ، وهو مشابه للمحذوف في صيغته ومعناه ، فاستغنينا بالمذكور عن المحذوف ، أي : ان المضاف اليه الثاني دل على الاول المحذوف .

ويقول الفراء : اذا كان الاسمان المضافان متصاحبين في الاستعمال الكلامي الكثير كاليد والرجل ، وقبل وبعد ، اضيفا معا للمضاف اليه المذكور . نحو : كسرت يد ورجل اللص . ونمت قبل وبعد الظهر . ولكن اضافة الاسم الاول الى المضاف اليه واضافة الاسم الثاني الى ضمير المضاف اليه الاول أدق وابلغ . وانصح ان نقول : كسرت يد اللص ورجله ، ونمت قبل الظهر وبعده .

الكتف الايسر

ويقولون : الكتف الايسر . والصواب : الكَتِف (بفتح فكسر) ، أو الكِتْف (بكسر فسكون) ، او الكَتْف (بفتح فسكون) اليسرى . والكتف مؤنثة .

وللانسان والحيوان كتفان ، وليست مفردة كما يعتقد بعضهم ، لان وراء كل منكب كتفا . وجمعها : كِتَفة (بكسر ففتح) واكتاف . وجاء كتوف (بضم الكاف) في قول كعب بن مالك الانصاري :

يا لهف نفسي اذ تولوا غدوة بالنعش فوق عوائق وكتوف

كراهيـــة

ويخطئون من يقول : كراهية (بكسر الهاء وتضعيف الياء) ، ويقولـون بأن الصواب هو : كراهية (بتخفيف الياء) كما نص على ذلك اللسان والاساس والصحاح . ولكن التاج ومتن اللغة يجيزان تخفيف اليـاء كالمعاجم الاخرى ، وينفردان بالقول بأن تشديد الياء جائز أيضا .

وفعله هو كره يكره كرها ، وكرها (بفتح الكاف وضمها وتسكين الراء فيهما) ، وكراهة (بفتح الكاف) ، ومكرهة (بفتح فسكون ففتح)، ومكرهة (بفتح فسكون فضم) ، ومكرها (بفتـــح فسكون ففتـــح) ، وكراهية (بتخفيف الياء) ، وكراهية (بتضعيف الياء) .

الكراويـــة

ويقولون : الكراوية . والصواب : الكرويا (بفتح ففتح فسكـون) ، او : الكروياء ، وهي من الابزار والافاويه المعروفة ، معربة قديما مـن اليونانية . وأجاز اللسان أن تاتي على وزن زكريا (كرويا) .

اكربـه الغم

ويقولون : أكربه الغم ، أي : اشتد عليه . والصواب : كربه (بفتـح الراء) (الغم) يكربه (بضم الراء) كربا (بفتح فسكون) ، فالامـر كارب والرجل مكروب وكريب (بفتح فكسر) . والاسم : الكربة (بضم فسكون) .

ومن معاني (أكرب) لازما :

١ ــ أكرب الاناء : أوشك أن يمتلىء .

٢ ــ أكرب الامر : كاد يقع .

٣ ــ أكرب : أسرع (مجاز) .

ومن معانيه متعديـا :

١ ــ أكرب السقاء : ملاه .

٢ ــ أكرب الدلو : شد عليها الكرب (بفتح ففتح) ، وهو حبـل صغير يصل الرشاء (حبل الدلو الطويل) بالخشبـة المعترضة علـى الدلو ، لكي لا ينقطع الحبل من المكان الذي يلامسه الماء .

وجمع الكرب (بفتح ففتح) : اكراب .

اكتـرث بــه

ويقولون : اكترث به ، أي : بالى به . وهو لا يكترث بهـذا الامر ، أي : لا يعبأ به . والصواب : اكترث له ، لانه يتعدى بالـلام وليس بالباء كما يرى التاج والاساس والمحيط ومتن اللغة واقـرب المـوارد والمعجم الوسيط ومد القاموس والمصباح ولا يتعدى بالباء .

ويعتقد صاحب التاج ان الامر التبس على اسماعيل بـن حماد الجوهري ، صاحب « الصحاح » ، عندما شرح (اكترث لـه) بقوله : بالى به . فنقل حرف الجر (الباء) من الفعل (بالى) الى الفعـل (اكترث) .

وجاء ابن منظور صاحب « لسان العرب » ، بعد نحو قرنين ونصف قرن ، وأخذ عن « الصحاح » ، دون ان يتفطن للخطأ الذي اقترفـه الجوهري ، فعثر مثله .

ولكن الاديب الباحث الاستاذ احمد عبد الغفور عطار ، عندمـا حقق الصحاح ونشره في ثوبه القشيب عام ١٣٧٦ هـ. و١٩٥٦م . فطن للخطأ فتحاشاه واكتفى بتعدية الفعل (اكترث) باللام .

ولا يستعمل الفعل (اكترث) الا في النفي ، وشذ استعمالـه في الاثبـات .

الكراســة

ويسمون الجزء من الكتاب كراسة (بفتـــح فتضعيف) . والصواب : هو كراسة او كراس (بضم فتضعيف فيهما) . والجمـــع : كرادِيس للكلمتين كلتيهما . ويجوز ان نجمع كراسة على كراسات أيضا . وزاد المختار على هذه الجموع الثلاثة : كرارس (بفتح الكاف وكسر الراء).

كــرس

ويقولون : كرس (بفتح فتضعيف) نفسه لخدمـة الناس . والصواب : وقف نفسه لخدمة الناس ، او : على خدمتهم : لان (كرس) هنـا ، كلمة دخيلة على العربية (يونانية) .

اما في العربية ، فان الفعل (كرس) يعني :

١ ــ كرس الاشياء : ضم بعضها الى بعض .

٢ ــ كرس البنـاء : أسسه .

٣ ــ كرس اللآلىء والخرز : نظمهـا في خيوط ، فهـي مكرسة (بضم ففتح فراء مضعفة مفتوحة) .

الكــرش

ويقولون : امتلا كرش (بفتح فسكون) الجمل . والصواب : امتـلات كرش (بكسر فسكون) الجمل ، او كرشه (بفتح فكسر) .

والكرش هي من كل مجتر بمنزلة المعـدة للانسان . وتستعمـل للانسان مجازا . وهي مؤنثة ، وجمعها : أكراش وكروش .

وتعني الكرش أيضا :

١ ــ كرش الانسان : بطانته وموضع سره .

٢ ــ ثوب اكراش : من برود اليمن .

٣ ــ الكرش : ما ارتفع من الارض وأشرف .

٤ ــ الكرش : الشـوب .

٥ ــ كرش الرجل : عياله وصغار ولده (مجاز) .

٦ ــ الجماعة من الناس (مجاز) .

٧ ــ الكرش من القوم : معظمهم (مجاز) .

٨ ــ الكرش من كل شيء : مجتمعه (مجاز) .

٩ ــ وعاء الطيب (مجاز) .

ويقال نثرت المرأة كرشها لزوجها ، أي : كثر ولدها منه (مجاز).

الكـركـدن

ويطلقون على وحيد القرن اسم الكركدن (بفتح فسكون ففتـــح ففتح فتضعيف) . والصواب : الكركدن (بنقل التضعيف من النون الـى الدال) . وهو حيوان عظيم الجثة ، من ذوات الحوافر ، قصير القوائم، له قرن واحد فوق أنفه .

ويسمى أيضا الكركند (بفتح فسكون ففتح فسكون) .

وقد ذكر المتنبي الكركدن ، بتشديد النون بدلا مـن الدال ، في احدى قصائده ، التي هجا بها كافورا ، ومطلعها :

الا كـل ماشيـــة الخيزلى   فـدى كـل ماشية الهيذبى

وقد جاء فيها :

وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبـين الرقى

وقد قال الشيخ ناصيف اليازجي شارح ديوان المتنبي ، وتـلاه عبد الرحمن البرقوقي في شرحه للديـوان نفسه ، بان تشديد نـون الكركدن عامية ، وان الصواب هو تشديد الدال وحدها اعتمادا علـى ما جاء في القاموس . ووافق على راي القاموس التاج واللسان ومتـن اللغة واقرب الموارد .

وأرجح ان المتنبي شدد النون محافظة على الوزن ، وهي عنـده ضرورة شعرية .

صيدا ــ لبنان

محمد العدناني

سامحه الله نجيب محفوظ فقد اودعني مقابر « الشهيد» وانا اتحفز للمقاومة . حرمني من المقاومة وانتزع مني « سناء » وجعل « نبوية » تتزوج من « عليش » قهرا ورغما عني دون ذنب اللهم لانني كنت سجينا ، وكنت اعتقد انها ما زالت على الوفاء والحب تنتظرني مع « سناء » .. الوجه الصبوح الذي يبسط الوجوه الحزينة والكئيبة ، ويشبع غلة القلوب الظامئة . وبالرغم من انه جعل « نورة » المرفأ الوحيد الذي بقي ، والذي القيت فيه المراسي آخر الامر ، فقد كنت ظامئا — وما زلت — الى وجهك يا « سناء » ، يا قطعة من النهار في عز الظهر .

وهانذا اقوم من جديد في رحاب الله الطاهرة اطلب سماحا وغفرانا لولاي نجيب محفوظ ، فقد ترفق بي في احلك اللحظات واسودها . ساعة انكرني اقرب الناس الي وتولوا عني : انكرتني « نبوية » فوجدت « نورة » ، واحتقرني « عليش » و « المخبر » فوجدت « رؤوف علوان » ، وعندما خذلني « رؤوف » اعطاني المعلم « طرزان » غدارة تساوي الدنيا اجمعين .. وفي احضانك يا نورة يحترق العالم ومن فيه . الا سناء ووجهها الابيض الصبوح الذي يشبه النهار واللبن الحليب .

ادعو دائما ان يسامحك الله يا استاذ . لان الشلة قد اجتمع اغلبها هنا .. آه لو كنت معهم — معنا — ابقاك الله واطال عمرك — لرأيت رؤوف — رؤوف فقط — تكفيك رؤيته دون الآخرين انه هنا معي دائما لا يفارقني ولا افارقه ، لا يبرح مكانه ابدا ، وانا ايضا يعز بحكم ما كان بيننا ان افارقه .. دائما يجلس منكس الرأس .. بينما الشيخ الجنيدي يتهدج صوته بالذكر وتقطر لحيته عرقا يتصبب كحبات البللور الصافية ، وكل ما فيه ابيض ، وصوته النقي الصافي يهزج باستمرار .. الله اكبر ، الله اكبر ، يا رحمان رحماك .. والمريدون حوله يتحلقون ، ونقمة الحب الخالص تتردد على لسان المنشد :

واحسرتي ، ضاع الزمان ولم افز
منكم اهيل مودتي بلقاء
ومتى يؤمل راحة من عمره ..
يومان يوم قلى ويوم تنائي .

آه .. لو رأيتهم يا استاذ ، وقد تغير الحال ، والناس غير الناس ، لو رأيتهم وهم عرايا بلا اردية ، والكل منشغل في الرحاب الطاهر ، ينتظر ساعة الحساب ؟ اما حين نلتقي بالشيخ الجنيدي ونحكي ونتسامر بحديث اهل الآخرة .. فالكل في الخشوع سواء ! ويبدو انك يا استاذ



بقلم حلمي محمد القاعود

لم تعلم ان رؤوف قد شرف بيننا .!

-اذا لم تكن تعلم فهانذا اقول لك .. بالرغم من انك تقرأ الجرائد قبلي .. دائما قبل ان تذهب الى مكتبك في الصباح . ربما لم ينشروا له نعيا فذهب بلا ضجة او مقال .. بالمناسبة كانت « نورة » تأتي بالجرائد في عز الازمة وهذا فضل منك ومنة .. رؤوف يا استاذ قد تغير .. تغير بعنف .. انه يجلس



منكسا طوال الوقت .. نحن لا ننام هنا .. لان الليل والنهار عندكم فقط ، اما عندنا فالزمان موصول . وكلنا في انتظار . حين اذكر رؤوف بأيام التلمذة ينهرني واحس انه يكرهني من كل اعماقه :

— الست يا رؤوف اول من جراني ؟

— نعم . ولكن قلت : أسرق بقدر!

— يا رؤوف نحن في الرحاب الطاهر فلا تكذب . ألم تقل لي بالحرف « يجب ان تسرق » .

— قلت ولكن نجيب محفوظ جعلك بطلا في السرقة والقتل والاغتصاب !

— لقد بدأت والبادىء اظلم .. فتحت الطريق لكل شيء ولم تغلقه الا بعد فوات الاوان .

— نحن الآن في الهم شرق .

— لا شرق اليوم ولا غرب !

وتهتز النظرات داخل جفونه فيقفلها بعصبية ويتأفف :

— تأدب يا سعيد .. فاليوم امر لا خمر .

— لقد عشت ايامك خمرا فاشرب اليوم امرا .

جعلني اضحك .. اضحك ملء شدقي . كنت عطوفا ورقيقا رغم جهنميتك يا رؤوف . اعطيتني ورقة بعشرة جنيهات حين لفظني السجن. ولكني اردت ان انتقم منك وطمعت في ان اسرقك جميعا بيد انك اكتشفت خطتي ثم رحمتني واطلقتني .. كريه انت وحبيب في آن معا يا رؤوف .

— اسمع يا رؤوف ماذا كتبت عني حرب الايام الستة ؟

— كتبت كثيرا .

— ماذا كتبت ؟ الم تذكرني حينئذ ؟ لقد كنت اجيد التصويب. ولو استعملت غدارتي لقتلت عشرين يهوديا وحدي ، وعدت بلا خوف.. الا من : الخوف من « المخبر » و « عليش » !

— تأدب يا سعيد . نحن في حضرة

الخلود الابدي .
ـ اظنك كنت تهلل يوم دخلت قواتنا سيناء . وكنت تمني نفسك بكتابة اول رسالة صحفية من هناك ؟
اليس كذلك ؟ اعرف طموحك يا رؤوف .. كنت طموحا ونابها في حكاية الصحافة . من يومها وانت طموح . اني اعرفك جيدا و ..
يقاطعني رؤوف والضجر يغطي وجهه :
ـ دعنا من الدنيا .. نحن الآن في الآخرة . لا تثقل علي ، فاني أكاد لا ادري !
ـ لماذا يا رؤوف ؟ هل اغضبك كلامي ؟ لا تزعل .. لن اتكلم ..
ويبصق على الارض . ارض غير الارض . وبصاق غير البصاق . ولا يلبث رؤوف ان ينكس رأسه .
ـ ماذا فعلت يا سيدي يوم الهزيمة . اكنت تذكرني حقا ؟
ـ استحلفك بالحضرة الآلهية ان تصمت يا سعيد فاني مثقل .
ـ لماذا انت مثقل . المثقل ينظر الى الارض دائما والخفيف ينظر الى السماء ابدا ويبدو انك وقت الهزيمة كنت تنظر الى اسفل .
اعرف انه يكره هذا الحديث دائما ، وان كان يحاول التقرب من الشيخ الجنيدي ، ويندمج في حلقات الذكر والانشاد :
وكفى غراما ان ابيت متيما
شوقي امامي والقضاء ورائي .
وها هو صوت الشيخ يتردد في صدى مهيب ! الله اكبر .. الله حي .. رحماك يا رحمان .. والمدى طلق فسيح ، والناس عرايا بلا اردية ..
احبك يا رؤوف رغم ما كان . رغم انني لم ادافع عن نفسي . لم اتمكن من المقاومة : كنت اريد قتلك لانك قتلتني بلا رصاص . ولكني احبك يا رؤوف . احب فيك خفة الظل وقوة الشخصية وانسجامك مع الواقع حولك . توزع الابتسامة فتزرع الثقة في النفوس . وتقطب فتؤكد مدى جديتك وايمانك بما تعالج من مشكلات . حتى بعد ان لفظني السجن اوحيت الي انك الرجل الهام المؤثر في حياتي . كم احبك يا رؤوف . ولكن .. حين يعربد الحاضر فاني اكرهك بكل عنف وقسوة . ثم لا تنبث هذه الكراهية ان تذوب حين اذكر الماضي ! علمتني القراءة والكتابة وتلك احدى فضائلك التي لا تنسى . قرات الجرائد في عز الازمة بفضلك ، وقرات المقالات التي كانت تكتب عني واولها مقالاتك التي كنت الخيط القوي فيها .. هو الخيط الذي ادى الى موتي كمدا بلا مقاومة ! اف .. لكم اتمنى العودة الى الوراء فاكتب عنك مثلما كتبت عني .. ولكن هيهات .. فالموت جدار لا يخترقه الرصاص ولا يهزه الديناميت .
بلغت قمة الشهرة بقوة شخصيتك . وتعرفت يا رؤوف على كبار الناس في البلد فكنت مرموقا يشار اليك بالبنان . العامة والخاصة والصغار والكبار والسوقة والقادة ينتظرون مقالاتك الشهيرة ، تفوقت على كثير من اندادك .. والناس تروي بما تكتب كأنه سيرة عنترة بن ذي يزن او الزناتي خليفة .
اجل يا رؤوف : احبك واكرهك ولكن .؟
ـ لم تقل لي ماذا كنت بعد الهزيمة ؟
ـ لم اكتب شيئا يا سعيد .
ـ يقال انك اصبت بشلل !
ـ وهأنذا بعد الشلل اتشرف بصحبتك من جديد .
ـ مرحى .. مرحى .. ما احلى الصحبة ، وما احسن الصاحب .
وانطفأ وجهه بغتة .
ـ لا تسخر يا سعيد .. كفى ..
ـ انا ؟ انا اسخر منك ؟ معاذ الله ! ولكني سعيد بصحبتك .
ـ لك الحرية انتسعد او تشقى .
اما انا فدعني .
ـ كيف ادعك وانت المعلم في الدنيا ، والرفيق في الآخرة ؟
وبان القهر في عينيه واضحا ..
ـ تأدب يا سعيد .. انت في الرحاب الطاهر . رحاب الخلود الطاهر .
ـ بل في رحاب الطهر الخالد .
تبسم سعيد .. اول نسمة .. يا للحظ .. نطق :
ـ لا فرق فالمسألة بسيطة ..
وضحك .. دائما تضحكني يا سعيد في اشد ساعات القهر .
ـ لا قهر الآن بل عدل . ام انك ما زلت متأثرا بالاسلوب الصحفي ؟
غمغم رؤوف :
ـ قهر . عدل . صحافة لا شيء يعنيني الآن . هأنذا معلق كريشة في مهب الريح انتظر يوم الفصل .
ـ ربما تكون من اصحاب اليمين يا سعيد فتطلب من الله ان اكون سميرك ونجيك . اضحكك واسامرك . وتخرج علبة السجائر الكبيرة وتقول : تفضل يا سعيد ، خذ واحدة .
ضحك رؤوف رغما عنه :
ـ انسيت انه لا توقد هنا سجائر ولا مصابيح . بل هي النار والنور . نار جهنم وحدها . اما نور الجنة فشيء آخر لا يشتعل بالكبريت .
دائما تذكرني يا رؤوف بما انسى . ذكي انت . وتجمع الى الذكاء الاناقة . تعرف دائما كيف تربط « الكرافتة » ربطة تضارع ابناء اوربة المتحضرين . ياقة قميصك منشاة . لون الحذاء والشراب يتفق مع لون البدلة . قطعة فنية انت . منظرك رائع وانت ترفع يدك في الصباح ملوحا بالتحية لموظفي الاستعلامات . بيد اننا هنا متساويان يا رؤوف .. عرايا .. تكرهني ولكني احبك واكرهك في آن واحد .
ـ ليس هنا كراهية وحب يا سعيد .

اوريكا

اشتاقها حتى اذا جئتها ... أملأ منها العين أنكرتها
أنكر أن تجمعها نظرة ... وهي التي في الغيب أكبرتها
ملء خيالي حسنها المشتهى ... وصورة عليا تصورتها
تغيب عني كلما جئتها ... وان أغب عنها تبينتها
فحارت الروح بها واشتكت ... فعدت بالجسم فعللتها

أتيتها أمس وفي خلوة ... طلبتها ـ جهدي ـ فأخليتها
حتى اذا استلقت على ساعدي ... ولج بي اليأس فقبلتها
لمحت في ناظرها عابرا ... طيف الهوى النائي فقربتها
ورحت شوقا أجتلي حسنه ... كنجمة زهراء أمسكتها
قالت وظنت أنه حسنها ... فطوقت خصري وطوقتها
كيف ترى قلت أرى طلعة ... غراء يا ليلى تعشقتها
رأيت في عينيك يا منيتي ... تلك التي في الغيب أحببتها
مرت كلمح البرق في غفلة ... منك ولما عدت ضيعتها

حلب — عمر أبو قوس

— لا يا رؤوف .. فأنت تكره جهنم .. أليس كذلك ؟ وتحب الجنة . أليس كذلك ايضا ؟ ام ان لك رايا آخر ..

الحب والكراهية .. تذكرني بسناء . وجهك الصبوح الذي يشبه الحليب . اما انت يا « نبوية » يا خائنة تزوجت « عليش » وغدرت بي فاني افوض امري الى الله . حين تموتين سوف نتقابل . وقبل ان ادخل جهنما سوف اقف واطلب الكلمة . اطلب حقي . اقول لربي : دمرتني نبوية يا رب ولم تبق لي شيئا . كسرت هيبتي . سوف تطلبين عفوا . والعفو يقابله عفو آخر .. اعف يا سعيد يعف عنك . من يدري قد ادخل الجنة نظير موتي كمدا . قد اتبرأ من دخول جهنم نظير غدرها . من يدري . قد اعتق من الجحيم نظير ما فعله رؤوف . ولكن .. من يدري ؟

— هل رأيت سناء يا رؤوف قبل ان تشرف بيننا ؟

— من ادراني يا سعيد . بموتك انتهى كل شيء .. اصبحت وما خلفت في خبر كان .. كيف لي ان اتعرف الى سناء بعد ان رمت قتلي واهداري ؟

— دعنا من حديث القتل والاهدار . اعتقد انها الآن اصبحت عروسا يطلبها الشبان ؟

— اظن ذلك .

— وهل يخطبونها من « عليش » ام من « نبوية » ؟

— ليست مشكلة .. من اي احد .. انهم يريدونها هي .

— سوف يسألون عن أبيها من هو ؟ وماذا كان ؟ اظنهم يعرفون حكايتي بفضلك يا رؤوف ؟

كتبت عني كثيرا فأصبحوا يعرفونها جيدا .

— لا تزعج نفسك كثيرا .. سوف تتزوج وتلد ويكبر ابناؤها ويتزوجون ايضا ..

— ويذهبون الى الجبهة ويحاربون اسرائيل ..

— اعتقد انهم لن يروا شيئا من ذلك .

— لماذا ؟

— لان الحرب تكون قد انتهت .

— لو لم تقتلني يا رؤوف .. لكنت ساهمت في الجهاد . واستخدمت مهارتي . الا تعترف بخبرتي في التصويب ؟

— نعم .. انت سيد الهدافين .

— كنت قناصا ماهرا .

— البركة في شباب البلد ، فهم يتعلمون المهارة من جديد .

— ومن سيكتب اول رسالة صحفية من هناك ؟

نكأته الذكرى .. اكفهر وجهه وحاول ان يبتسم .. خانته المحاولة ، وطفق الحزن مروعا .

— اسكت يا سعيد . ودعنا من هذا .

— تكره الحديث عن الصحافة وتطلب مني ان اسكت : الى هذا الحد كرهت المهنة ؟

— ارجوك ـ دعنا من هذا .

— كنت تؤمن او تقول : ان لا شيء صعب على الاطلاق .

— استحلفك بسناء ان تسكت .

اسكت . نعم اسكت . وسوف اسكت .. ويكفيني ان الشيخ الجنيدي ما زال صوته الريان يتهدج وصوته المنشد يتردد في جنبات الآخرة ..

يا لائمي في الهوى العذري معذرة
مني اليك ولو انصفت لم تلم
والذاكرون في صفاء يسبحون . ومناجاة الله زادهم الخالد . الله حي .. اغثنا ادركنا يا منى عيني ولست ادري الى متى اظل اضحكك واضايقك يا رؤوف . الا ان الشيخ الجنيدي سوف يكون ملاذي وملجئي حين يضيق العالم في عيني وتزايل الحيوية جسدي .. شوقي ما زال يتأجج يا « سناء » . اما انتم يا أساطين الغدر : نبوية ، عليش ، المخبر .. فأحكم بيني وبينكم رب العباد . واطلب الغفران لي ولكم ، وليسامحك الله يا نجيب محفوظ مرة ثانية .

الاسكندرية — حلمي محمد القاعود



فتحي الابياري

القصة العربية الحديثة

بقلم فتحي الابياري

* * *

لماذا لم تصل القصة العربية الحديثة بعد الى المستوى العالمي بحيث تقف على قدم المساواة مع القصص العالمية الخالدة ؟ وهل وصلت القصة الحديثة بمستواها الحالي الى المستوى العالمي ؟ وهل كانت اللغة العربية حائلا دون انتشار الفن القصصي العربي في انحاء العالم ؟ ولماذا لم يتحرر الفنان العربي من الاغلال التي تكبل انطلاقه في عالم اللاوعي اثناء عملية الخلق الفني ، ما هي تلك الاغلال ؟ وهل استطاع القصاص العربي ان يعبر عن واقعنا في اعمال قصصية كبرى ؟ واذا لم يكن قد استطاع ذلك ، فلماذا ... وما هي الاسباب ؟

اسئلة كثيرة ، ومتضاربة تبحث عن جوانب بعد ان سرت في المحيط الادبي موجة عارمة مسرحية جرفت معها عدد كبير من كتاب القصة القلائل . مما جعل بعض النقاد ينادون بأن هناك ازمة في القصة . وكان من الاجدر على كتاب القصة ان يستمروا في محاولاتهم الابتكارية لدعم كيان الفن القصصي العربي ، حتى يصل الى المستوى المنشود من الجودة والاصالة .

والذي يقرأ اعمال القصصيين الغربيين الكبار أمثال همنجواي ، وشتاينبك وبيرل بك ، وجوركي ، وتشيخوف ، وسارتر والبير كامي ، وديكنز ولورنس داريل اخيرا ، سواء في القصص الاصلي او النص المترجم باللغة العربية ، يجد فارقا كبيرا بين تلك الاعمال الادبية الخالدة ، وبين تلك المحاولات التي يقوم بها بعض كبار قصاصينا الان . فما السر في هذا ، وهل هذا يدل على اننا حتى هذه اللحظة لم نصل الى المستوى العالمي في هذا الفن الذي مارسناه بما يقرب من نصف قرن تقريبا .

ان الدارس المتخصص في الفن القصصي يرى انه منذ ان الف الدكتور هيكل قصته « زينب » ، وما تبعها من قصص ، ونهضة قصصية باقلام محمود تيمور والحكيم والمازني ونجيب محفوظ والسباعي وثروت اباظة وعبد الحليم عبد الله ويوسف ادريس . ان تلك الاعمال القصصية لم تصور في اغلبها الواقع المصري الصميم . ولهذا كانت بعيدة كل البعد عن انفسنا ولم يجد فيها الغرب شيئا جديدا يجذبه اليها ، لانها كانت خالية من اهم صفة من صفاتها وهي روح الشرق .

اما تلك الاعمال القصصية التي عبرت بوضوح وصدق فني عن حياتنا الساذجة ، البسيطة ، او التي صورت ذلك الصراع العنيف بين ابناء هذا الشعب وبين الظروف الاجتماعية القاسية التي كانت تحيطهم ، هذه الاعمال القليلة للحكيم وتيمور ومحفوظ وادريس وغيرهم من الكتاب ، ترجمت الى بعض اللغات ، ووجدت التقدير في الاوساط الادبية هناك .

اذن ، فلدينا بعض البذور الصالحة ، لكي تكون قصتنا العربية من القصص العالمية ، فلماذا لم تقف على قدم المساواة مع قصص خالدة مثل وداعا للسلاح ، ستشرق الشمس ثانية ، اللؤلؤة ، رجال وفيران ، الارض الطيبة ، الام . واعمال جوركي وتشيخوف وغيرهما من الكتاب الروس ، وقصة مدينتين ، ودافيد كوبرفيلد ، ورباعيات الاسكندرية ، وهناك المئات من القصص التي تهز النفس البشرية في اي مكان في العالم ، أعود فاكرر السؤال مرة ثانية .. لماذا اذن لا توجد عندنا امثال هذه القصص ؟!

يرى فريق من الكتاب والنقاد اننا لم نصل الى هذا المستوى لان لغتنا العربية لا يتحدث بها عدد كبير مثلما يتحدث عدد كبير من ملايين البشر باللغات الانجليزية او الفرنسية مثلا . وبعضهم يرى اننا ما زلنا في مرحلة الطفولة بالنسبة للفن القصصي بالمفهوم الحديث لفن القصة . وآخرون يرون انه حتى ولو كتبنا اعمالنا بلغات اجنبية ، فان الناشرين الاجانب لا يفسحون المجال للكتاب العربي بسبب التعصب في اغلب الاحيان . وان القصة العربية الحديثة تكاد تتفوق على القصة الغربية الحديثة الآن ...

وهذه الآراء المتضاربة ايضا تدل على اننا ينبغي ان نوجه اهتمامنا الى هذا الفن الخالد ، فمثلا نلاحظ ان الذين يكتبون القصة في هذه الايام اغلبهم من الصحفيين ،

الذين يتخذون اسلوب القصة في رواج مجلاتهم . ولذلك يطالعون القارىء العربي بانتاج قصص هزيل ، والسبب في ذلك السرعة المذهلة التي ينتجون فيهـا قصصهم ، وعدم تمكن كثير منهم من اللغة العربية ، والاسلوب الفني والحبكة القصصية الاصيلة . واذا بسيل من القصص والمجموعات القصصية الغير ناضجة تغمر الاسواق الادبية ، تصاحبها موجة عارمة من الدعاية والكتابات من اقلام الاصدقاء ، اما اقلام النقاد ، فقد اتجهت الى الميدان المسرحي ، واصبح ميدان النقد القصصي خاليا الا من بعض الاقلام الهادفة ، ولكنها لا تجد لها مكانا تحت شمس الفكر . وهذا يؤدي بطبيعة الحال الى تدهور الفن القصصي ، وبالتالي يجعلنا دائما متخلفين لناخذ مكانا في المحيط الادبي العالمي .

وسبب آخر هو اننا عندما نقتبس بعض الاساليب الجديدة في البناء الفني للقصة من الادب الغربي ، نقتبسه ظاهريا فقط دون تعمق او اضافة شيء جديد من ذاتيتنا . كأن نقتبس مثلا تصميما رائعا « لفستان » اعد خصيصا لجسم معين وشكل معين ، فاذا بنا نضعه على جسد ضخم لا يتناسب او ضئيل لا يتناسب مع التصميم . فاذا المنظر الاخير يثير فينا السخرية والتهكم . لان عنصر التناسق قد انعدم نهائيا .

ففي قصة « الرجل الذي فقد ظله » لفتحي غانم مثلا ، اعجب الكاتب بالاسلوب الجديد الذي انتهجه الكاتب الانجليزي لورنس داريل في « رباعية الاسكندرية » جوستين ، بالثازار ، مانتوليف ، كليا وهي القصة الضخمة التي احدثت دويا في المحيط الادبي العالمي ، والقصصي خاصة . لقد اعجب الكاتب العربي بالاسلوب الجديد « لداريل » وهو تصوير الشخصيات من عدة زوايا مختلفة . فكانت لكل شخصية من شخصيات القصة الرئيسية عدة ابعاد ، بل جعل القارىء نفسه يضع بعدا خامسا او رابعا للشخصية . فاتخذ الكاتب العربي هذا الاسلوب ووضع لنا رباعيته التي صور فيها شخصيات « مبروكة . سامية محمد ناجي . يوسف » . ولكن العمق في التحليل ، ودراسة الشخصية الانسانية في اعماقها . وتحليل الاحداث والمواقف بدقة . كما رأينا في رباعية « داريل » . لم يوفق الكاتب العربي الى مثل هذا في روايته . وشغلته القشور والاحداث العادية البسيطة عن التعمق والتحليل . واتساءل .. ما الجديد الذي سيفاجأ به القارىء الغربي عندما نترجم له هذه القصة .. اذا كانت الطريقة الجديدة في تصوير الشخصيات قد اعجبته ، فلا شك انه سيهرع الى الاصل . وهو اروع واعظم . واذن فما هي الروعة التي ستشد انتباهه في القصة العربية ؟

ان محمود تيمور مثلا ، قد استطاع ان يتفهم « التكنيك » الفني للقصة على مذهبه الحديث . فدرسه بعمق . ثم اخرج لنا اقصوصة او قصة عربية اصيلة من واقعنا الملموس والشخصيات التي نصادفها ونقابلها في حياتنا بتقاليدها وعاداتها . ثم تبلور كل هذا في العمل الكبير الذي اخرجه لنا نجيب محفوظ في ثلاثيته المشهورة : وفي بعض الاعمال القصصية .

ولكي تكون لدينا قصة عربية ذات مستوى عالمي ، ينبغي على القصاص ان يغوص في الاعماق السحيقة في المجتمع الذي يعيش فيه ، ليصوره ويحلله ، ويضفي عليه من ذاتيته . ثم يصور كل هذا في صدق . فالصدق الفني يكاد يكون معدوما في كثير من الاعمال القصصية التي تغمر الاسواق الادبية عندنا . هذا الصدق الفني هو الذي يجعلنا نعيش مع شخصيات « الام » لبيرل بك . او « كينو » في اللؤلؤ لشتاتينو . او « دافيد » لشارلز ديكنز . او جوستين ، وميليا ، وبالثازار ، « وكليا » في رباعيات الاسكندرية .

هذا الصدق الفني الذي يجب توافره في القصاص العربي هو السبب المباشر في عدم مواكبة الاديب للواقع الجديد في مجتمعنا . لان بعض الادباء لم يكونوا في الماضي صادقين مع انفسهم . فجاء ادبهم صورا مهزوزة . غير واضحة المعالم ورأينا شخصياتهم مسطحة . مريضة . سلبية . لا نماء فيها ولا اثراء .

وربما يرجع هذا الى ان القصاص العربي كانت نفسيته مكبلة بعدة اغلال وقيود اجتماعية ، وسياسية او بيئية . وعندما تحرر من تلك القيود ، لم يعتد على تلك الحرية الجديدة . فهو في مرحلة جديدة تحتاج الى تغيير جذري داخل نفسيته ، وهذا يحتاج الى وقت ليس بالقصير .

وهناك ملاحظة استرعت انتباهي ، بالنسبة للقصاصين العالميين ، وهي ان لكل منهم فلسفة معينة بالنسبة للانسان والحياة والمجتمع . وربما يرجع خلود اعمالهم القصصية ، وعالميتها الى هذا السبب . فجوركي مثلا كان يرى انه يجب ان يحترم الانسان لا ان يكون موضع الشفقة . فالشفقة اهانة . وقد وصل به الحد الى الايمان بالانسان كشيء مطلق . وقد برزت هذه الفلسفة في كثير من اعماله ــ وهمنجواي ، كان يرى ان الانسان قد خلق ليكون مصارعا في كل خطوة يخطوها . فهو مصارع لقوى طبيعية وقوى بشرية . واذا ما انتهى عنصر الصراع فقد الانسان قيمته . وربما كان هذا هو السبب في انتحاره . لانه رأى عدم جدوى الصراع مع المرض الذي أصيب به طالما كانت النهاية الاخيرة هي الموت . فآثر ان يخرج من الصراع منتصرا ، بأن يصرع نفسه قبل ان يفتك به المرض .

وشتاينبك كان يبحث عن حقيقة الانسان في اللؤلؤة ، و « فيفازاباتا » وفي كثير من اعماله الاخرى الخالدة . اما « البير كامي » فكان يرى في التمرد

البحر الغربي او بحر جدة

قيلت امام البحر الاحمر

من ذكريات مدرس بمعهد المعلمين في جدة ـ المملكة العربية السعودية

سجا . وأطرق حينا ... يجتر دهرا دفينا
يحكي اذا هو أصفى ... فهل سمعت مبينا
قضى على الشك لما ... رأى السكوت يقينا
مثوى الثعابين ماذا ... خبرت منها فنونا
أمواجك الحمر غاصت ... تبغي الملاذ الامينا
غرقت يا بحر فيها ... فهل رجعت جنينا
وانت اكبر شيء ... يرى رهيبا رصينا

صمت العظيم جلال ... يحرك الصامتينا
أبقى وأرسخ حكما ... لقاهر ان يلينا
رأيت شطك يغفو ... والليل يكسو عرينا
ملك ينام قريرا ... ويستفيق مصونا
يزجي الاساطيل جندا ... له . ويجري السفينا
ويطعم الناس طرا ... لحما طريا سمينا
وهل يكون عظيم ... الا لجود قرينا

غرقت في جبروت ... لا مستذلا حزينا
وكيف يغرق قلب ... يفيض حبا ودينا!
لا مستقرا وديعا ... ولا حقودا ظنينا
يا للغريق بهيجا ... حلوا ، أبيا ، مكينا
يبني الحياة ويهدي ... بصمته الحائرينا

طرابلس ـ لبنان ... سليم الرافعي

والانطلاق غاية الانسان الذي كبل بالقيود منذ مولده . وحتى الموت . لذلك كانت الحياة بالنسبة اليه عبثا واي عبث . وسارتر كانت فلسفته الوجودية الواضحة غزوا في الفكر المعاصر العالمي ، ثم استغل الاسلوب القصصي في نشر فلسفته عن طريق الاعمال الفنية . واعتقد ان لكل قصاص عالمي ، فلسفة معينة ، تعتبر الاساس الذي يشيد عليه بنيانه الفني الشامخ .

واذا بحثنا عن فلسفة القصاص العربي الخاصة ، فاننا لن نعثر على فلسفة واضحة تميزنا . وتميز الانتاج القصصي الذي نطالعه . وربما يرجع هذا الى اننا قبل الثورة ، كنا نعيش بفضل الضغط الاستعماري بلا شخصية واضحة ، او فلسفة معينة تحدد طريقنا . اما الآن فنحن في سبيل تكوين فلسفة جديدة وأومن ايمانا كاملا بأن الايام القريبة التالية ستخلق لنا القصاص العربي ، بعد ان تتكون له الفلسفة الخاصة بحياتنا ومجتمعنا وبالانسان الجديد ... الذي يغزو الفضاء .

القاهرة ... فتحي الابياري

يوسف حنا - خليل طوطح
فؤاد شطاره - علي شعث

بقلم الفقيد البدوي الملثم

* * *

١ ـ يوسف حنا

في اعقاب القرن التاسع عشر ولد « يوسف » حنا في طنطا بمصر من ابوين سوريين ولتتم الرسالة على احسن وجه ، وليربح الفكر قلما من أخصب الاقلام درج « يوسف » في بيت مناوح للبيت الذي يقطنه مصطفى صادق الرافعي صاحب « اعجاز القرآن » . وبحكم الجوار أولا والعرق السوري ثانيا تفاعلت اسرتا « الرافعي » و « حنا » في المشاعر والتقاليد والعادات ، واقبلتا على هضم ما في الدارين من كتب ومجلات وموسوعات !

وشب الفتى « يوسف » عن الطوق ، ولزم الفقيه الشيخ محمد المالكي الابياري ومصطفى صادق الرافعي وتاسى خطاهما ووجد في دارة أهله وفي دارة آل الرافعي رفوفا مزدانة بكتب في اللغة والفقه والادب فاقبل على هضمها وعرض ما تعذر عليه فهمه على الشيخ الابياري والاستاذ الرافعي فكانا يسهلان صعبه ويشرحان غوامضه .

ووقف « يوسف » على روائع الادبين القديم والحديث وألم باسرار البلاغة وهام بالمدائح النبوية وبالاناشيد والاذكار التي تتلى في حلقات الذكر .

وبعد ان وضعت الحرب العالمية اوزارها واستقام عود « يوسف » كانت الامبراطورية العثمانية متداعية الاركان وكان الانكليز يدخلون فلسطين بحق الفتح وهم يتطلعون الى شبان يحسنون العربية والانكليزية فكان « يوسف » في عداد من وقع عليهم الاختيار .

وفي عام ١٩١٧ بارح مصر الى فلسطين ودخلها مع (حكومة اراضي العدو المحتلة) وعلى رأسها الجنرالان بولز وستورس . ووفقا للتقسيمات الادارية عين « يوسف » رئيس كتاب في دائرة حاكم غزة ، وبحكم الوظيفة تنقل بين بير السبع وغزة ويافا . وفي شهر اذار ١٩٢٩ اقبل على الادب وبعث من غزة باول مقالة الى جريدة « السياسة الاسبوعية » دفاعا عن المدرسة الحديثة .

وفي أول زورة قام بها للقاهرة احتفى به الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير « السياسة الاسبوعية » ومحرروها وحضه مؤلف « حياة محمد » على الاستقالة من عمله الحكومي ، اذ دلل في اول مقال نشرته « السياسة الاسبوعية » على انه اديب اصيل وشجعه هيكل على السير في درب الصحافة ليستعين بها على الادب ، فاستجاب « يوسف» لنداء منشىء « السياسة الاسبوعية » وسلخ عامي ١٩٣٠ و ١٩٣١ في القاهرة وكتب في « السياسة الاسبوعية (١) » و « اليوم (٢) » و « الضياء (٣) » و « المقتطف (٤) » واقبل على ترجمة طرائف برتراند رسل وكان ينشرها في « المقتطف » . وابرز مقالاته « الاستهتار » .

وفي عام ١٩٣٢ عاد « يوسف » الى فلسطين ليكون اليد الطولى للاستاذ عيسى العيسى صاحب جريدة « فلسطين » اليافية وظل يعمل في تحريرها لغاية عام ١٩٤٨ وجرى قلمه بفصول ادبية رائعة كان ينشرها على صفحات « فلسطين » ودارت بين المغفور له الملك عبد الله بن الحسين وبين « يوسف » أبحاث وردود في الادب العربي كانت « فلسطين » مسرحها .

تميز « يوسف حنا » باسلوب عربي مشرق ، قل هو السحر الحلال ، ويزيده وهجا وتالقا وقوفه على الادب الانكليزي وتأثره ، منذ حداثة سنه ، باعلام الادب الفرنسي امثال « بيير » صاحب « الكوخ الهندي » وباعلام الادب الانكليزي امثل « هـ. ويلز » و « برتراند رسل » .

وزاد في وعيه ونورانية عقله تعاليم جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومحمد المالكي الابياري ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم من اخوان هذا الطراز العالي .

وزاد اسلوبه اشراقا وديباجته تالقا واستهلاله براعة اقباله على القرآن الكريم بصوره البيانية المشرقه . واثرت فيه طبيعة الحياة الريفية بطنطا واحاديث الشيخ الظواهري شيخ الجامع الاحمدي بطنطا.

نموذج من شعره : كانت تربط « يوسف حنا » بالمغفور له الدكتور حسين فخري الخالدي صلات موطدة على الوداد والالفة . وبعد ان انتقل الدكتور الخالدي الى الرفيق الاعلى رثاه « يوسف » بقصيدة غمسها بذوب قلبه ودونك ابياتها :

وفيت للحق ما أوفى على الطلب	ففال بالموت ماتاه على الرحب
عابوك انك لم تذهب مذاهبهم	ماذا على الشهب ان جادت عن الدرب
يغنيك نلت الذي أملت من أجل	هذا الكتاب فسجل آية الحقب
أثارك الشوق فاسترخصت فديتها	يا باذل النفس حاذر باذل الذهب
لما تعاليت ما استهوتك منزلة	واذ تجردت لم تسكن على أرب
فارقت دنياك لا مال ولا نشب	مآثر المرء كل المال والنشب
«حسين» ! مثواك بين الخالدين هنا	وأنت في الله بين الخيرة النجب

وفي عام ١٩٦١ فجع « يوسف » بوفاة شقيقته « وهيبة » في طنطا فآلمه فقدها ورثاها بابيات تنضح أسى ولوعة :

طويت ومن ذا يدفع الموت طاويا	حنانيك..هل خلفت في مصر باكيا
أهبت بماء النيل اذ جف مدمعي	ففاض وكان العهد بالنهر جاريا
أختاه هذا بعض ما جلب النوى	تناكرني النيل الحبيب مجافيا
أتاك الردى بعد الثمانين خاشعا	يقول : كفى أديت قسطك وافيا
أحقا جهدت الموت عشرا لتلتقي	فما نلت مأمولا ولا شمت آسيا
الى الله أشكو حسبي الله مشتكى	نفى الموت بعد النازحين التشاكيا

وفي السابع والعشرين من شهر ايلول ١٩٦٤ نشر « يوسف » في العدد الصادر بهذا التاريخ من جريدة « الدفاع » المقدسية مقالا افتتاحيا بعنوان : « في السبعين » على طريقة طه حسين في كتابه « الايام » . ولقد اثرنا اثباته كنموذج لنشر هذا الاديب الاصيل :

« في مثل هذا اليوم (٢٧ ـ ٩ ـ ١٩٦٤) من سبعين عاما مضت

---

١ ـ جريدة اسبوعية صدرت في القاهرة عام ١٩٢٦ وصاحب امتيازها حزب الاحرار الدستوريين ورئيس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل باشا .

٢ ـ جريدة يومية صدرت في القاهرة عام ١٩٣٠ وصاحب امتيازها توفيق دياب .

٣ ـ جريدة يومية صدرت في القاهرة عام ١٩٤٠ وصاحب امتيازها الدكتور محمود عزمي .

٤ ـ مجلة شهرية صدرت في بيروت اولا عام ١٨٧٦ وصاحبا امتيازها الدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧) والدكتور فارس نمر (١٨٥٦ ـ ١٩٥١) وفي عام ١٨٨٤ انتقلا بها الى القاهرة وفي عام ١٩٥٢ احتجبت عن الصدور .

كانت سيدة تقية ، نقية ، منقطعة في بيت من بيوت اللـــه ، تتهجد ، وتتعبد ، فما راعها الا ان تفاجأ بالشدة والاوجاع ، تأخذهـــا في عنف وقوة ، الا انها تماسكت ، وهرولت مسرعة ، لعلها ان تعود الى المنـزل قبل ان تتعسر ... في الطريق ، ولكن القدر خانها فيما تطلعت اليـه من أمل ، ووضعت مولودها في الشارع ... وكان الطريق الذي تفتحت عليه عينا الطفل ، اول ما تفتحتا على دنيا الناس ، وهـــو يستشرف عليها ، ساعة خروجه من دنيا الاحشاء ، هـــو طريق مسجد السيد البدوي .

واحتفظ الطفل في نفسه ، بحرمـة خاصة للمسجـــد المذكور ، زادتها الايام وثاقة وصدق شعـــور .. وكـــان لمصطفى صادق الرافعي نصيب وافر في توثيق تلك الصلة . كـــان مصطفى اذا اصطحب معـه صبيا ، في بعض جولاته في المدينة ، ومـــرا بضريح السيـــد ، وقف مصطفى خاشعا وقرأ الفاتحة ثم مسح عـــلى وجهه وصدره بيده ، واستانف السير ، والتفت الى الصبي يقول : « في هذا المسجد تلقـى الشيخ الامام محمد عبده دروسه في مطلع حياته ، وأنا لا تفوتني قراءة الفاتحة كلما مررت بالمسجد الاحمدي ، حرصا مني على احترام ذكـرى الشيخ الامام » .

وكان صبينا قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، حين انتقل الاستاذ الامام الى الرفيق الاعلى ، الا انه كان يعي تمام الوعي مبلغ ما أثـــار احتجاب الشيخ من لوعة في القلوب . وكانت لحياة الشيخ وفضائله اثر في نفوس الجيل ، لا يتطاول اليـه سوى اثـر الشيـخ جمال الديـن الافغاني ، واستاذ الجيل احمد لطفي السيد . وبعد وفاة الشيخ محمد عبده بعام وقعت مأساة « دنشواي » التي تعمد فيها الانكليـز البطش بالمصريين واذلالهم ولكن مصر لم تستذل ، واضطرت بريطانيا ان تقيـل اللورد كرومر عام ١٩٠٧ ، أي بعد عام واحد من تاريخ مأساة دنشواي، وكان صبينا قد بلغ الثالثة عشرة مـن عمره . وقـد كانت تلك المأساة نقطة تحول في صلات مصر بالانكليز ، تماما كمـــا كانت مأساة فلسطين نقطة تحول في صلات العرب ـ كل العرب ـ بهم . فلقد ثار الجيـــل الجديد في مصر ، بعد جريمة دنشواي ، على الفكرة التي كانت تدعـو الى وجوب الانصراف اولا الـــى صلاح الشؤون الداخلية في مصر ، وبخاصة نشر التعليم ، ومن ثم يتفرغ المصريون لطرد الانكليز . امـــا الدعوة الجديدة فكانت تنادي بانه لا صلاح يرجى في الشؤون الداخلية في مصر ما ظل فيها انكليزي واحد . وكان يستشهد المصريون على ذلك بـ « دانلوب » الذي تولـــى شؤون التعليـم في مصر سنوات طويلة ، فتعمد ان يقتصر التعليم فيها عـــلى القسم الابتدائي اذا تيسر ... وحصر التعليم الثانوي في بضعة مدارس في القاهـــرة والاسكندرية ، ومدرسة واحدة في شبين الكوم . وكان الصبي في السادسة عشرة مـن عمره ، حين اصطدم بـ « دانلوب » ذاك واضطر ان يغادر مصر الـــى جامعة بيروت الامريكية ، حيث قضى بضعة ايام ، ثم اصطدم باستاذ انكليزي آخر هناك اسمه « ليتل » فعاد الى مصر حيث قـــاده حسن الطالع الى لقاء استاذه وصانعه الشيخ محمد المالكي الكبير .

وفي طريقه الى بيروت مرت الباخرة بيافا ، فشاهدها الصبي من بعيد لبعيد ، وكان كل ما يعرفه عنها انها ذكرت في احدى رسائل بولس الرسول ، وان نابوليون ارتكب فيها الكثير من الكبائر ، وانه ذبح الجنود الذين دافعوا عنها حين دخلها فاتحا . اما فلسطين فشيء كان يجهلـــه ولا يذكر ان اسمها قد مرت به عيناه ، وهو يقرأ ، وما اكثر ما اعتاد ان يقرأ منذ عهد طفولته !

وفي يوم من أيام طفولته تلك ، دخل الصبي غرفة أخيـه جورج ، الذي احتضنه بعد وفاة ابيه وهو رضيع ، فاسترعى نظره كتاب مجلد بجلد أسود جميل ، وقد كتب عليه بحروف بارزة « القرآن الكريم » فسأل أخاه : « ما عسى ان يكون هذا الكتاب ؟ » فأجابه جورج « انه هدية من اخينا مصطفى » ثم استطرد فقال : « ولو قدر لك ان تدرس هذا الكتاب دراسة صحيحة وتتفهم اعجازه البياني ، فلعلك أن تملك، في مستقبل أيامك ، الاداة اللازمة لان تصطنع من الاساليب البيانية ، ما عسى ان يسلكك في زمرة الاعلام البيانيين الذين يتزعمهم في هـــذا العصر مصطفى » .

وانصرف الصبي وهو يفكر في هذا الكتاب الواحد الذي عسى ان ينشىء من المرء العادي اديبا مرموق المكانة . وعلى بالغ مـــا يقـدر الصبي من أثر جورج ومصطفى في توجيهه الادبي ، فلقد كان لاستاذه وصانعه الشيخ محمد المالكي الانباري الفضل في تدريسه القرآن الكريم وهدايته الى اسرار الاعجاز فيه . كان الشيخ يملك مـــن حطام الدنيا عشرين فدانا يتجمل بريعها على العيش ، أما ما كان يستحق له مـــن اجر طوال حياته التدريسية ، على جلال شانها ، فلقد كان يعف عـن تناوله ، ويوصي المعاهد التي يعمل فيهـــا ، بان تنفقه على فقـــراء التلامذة . وكانت صوفية الشيخ الابياري من مادة صوفية الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وهـــي تعني في حقيقتها الكبرى الترفع عن الدنايا ، لا احتقار الحياة او الانقطاع عنها . كان الشيـخ حين تولى تدريس الصبي قد جاوز الستين مـن العمر ، الا انه كـان بالغ التأنق في ملبسه وفي تصرفاته وفي كل ما من شانه ان يظهره امـام الناس بمظهر الانسان الكامل ، الذي يعطيك مـن جلال مظهره ، صورة عن جلال مخبره ، وكان تلامذة الشيخ يجدون في دروسه ومحاضراته عن القرآن الكريم ، كل ما عسى ان يقرب هذا الكتاب المعجز الى افهامهم ، كما كانوا يجدون في حياة الشيخ المثل الاسمى لحياة الرجل الكامل ، فأحبوه أشد الحب ، وتقيدوا بمناهجه في الحياة ما وسعهم ذلك .

وما اكثر ما كان يتحدث الشيخ الى تلامذته عـــن جمال الديـن الافغاني وعن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وكلاهما مـن مشاهير رجال التاريخ ، وعن رجل آخر مغمور ، لشد ما كان يتانق الشيخ في حديثه عنه ، كلما ذكره ، وما اكثر ما كان يذكره ، وكان هذا الرجل المغمور هو الشيخ حسين والي ، وكان المالكي يقول لتلامذته « حسين والي » ذاك ، هو رئيس لجنة الاوقاف ـ في العصر الذي لم تكن فيـه للاوقاف وزارة ـ وفي احدى جلسات تلك اللجنة برئاسة الشيخ حسين، فاجأ افندينا عباس حلمي ، اللجنة بزيارته ، فامتعض الشيخ وقـــال لافندينا : « ما مقامك بيننا ؟ » فأجابه افندينا : « لي طلب استبدال أرض من أراضي الدائرة السنية ، بأرض من أراضي الاوقاف ! » فقال له الشيخ ، في وقار الرجل المؤمن : « اترانا هنا أمناء علـــى أراضي الدائرة السنية ، أم على الاوقاف الاسلامية وهـــي : اموال للـــه في أيدينـــا ؟ » .

وكان تلامذة الشيخ المالكي يتتبعون الشيخ حسين والي في روحاته وفي غدواته ، من بعيد لبعيد ، معجبين به ، مقدرين مناهجه السليمة في الحيـــاة .

وتصادف ان زار افندينا مدينة طنطا ، في تلك الايام ، فاستقبله تلامذة المدارس بالهتافات الرسمية المعهودة ، وشذ عنهم تلامذة الشيخ المالكي فلقد هتفوا بحياة : الخديوي الدستوري ... ولم تفت الغمـزة ملاحظة أفندينا ، فأمر بان يقضي الهاتفون ليلتهم تلك في الكراكون !

ولم يقتصر النفوذ الادبي في توجيه الصبي ، في مستهل حياته على بيئة مسجد سيدنا الحسين وشيوخه ، ففي الحق انـــه قـــد كان (لدراويش) السيد نفوذهم ، هم الاخرون ، على خياله ، وكان أحب اولئك (الدراويش) الى قلبه وآثرهم عنده عمي الشيخ « طلبـــة » . كان الشيخ فارع الطول ، عريض الالواح ، تائـــه النظرات ، أجش الصوت ، حاضر النكتة ، متوددا الى القلوب ، وكان يقضي نهـــاره قضاء عامة الناس ، فاذا آذنت الشمس بالمغيب ، انقطع الى «الترب» أي المقابر القديمة ، وكانت تقوم على تل عال ، ليقضي الليل في ذلـــك المكان الموحش ، الذي كانت تألفه ـ كما اعتاد ان يتوهم الصبيان مـن المعجبين بالشيخ طلبة ـ الارواح والعفاريت طوال ساعات الليل . وكان الشيخ اذا سئل عن الحكمة في انقطاعه في ذلـــك المكان المسكون ... أجاب : للتجلي ! وكان الشيخ « طلبة » مرجعا لتفسير مـــا يستعصي

على الصبيان فهمه .

وفي ذلك العهد الذي كانت بيئة ميدنا السيد تتجه بالصبي هذا الاتجاه الادبي ، العاطفي الجميل ، ساهمت كبرى شقيقاته في تنمية اتجاهه ذاك ، فلقد شرعت تقرأ له في تلك السن المبكرة روائع ائمة الادب الرومانتيكي باللغة الفرنسية ، وهو كان شائعا شيوعا طاغيا في بلاد العرب ، في ذلك العهد البعيد . وكان أحب اولئك الائمة الفرنسيين الى قلب الصبي هو « برناردين دي سان بيير » وكانت شقيقته تهز نفسه هزا عنيفا ، وهي تقرأ له روائع « برناردين » وبخاصة « الكوخ الهندي » . وهو يرد ولعه بالطبيعة الى عهد طفولته الذي تفتح فيه ذهنه على تلك الآداب التي كانت تدعو الى تمجيد الطبيعة ، والبساطة في العيش . وبلغ من اعجاب الصبي بتلك الفنون الادبية انه اخذ يدرس اللغة الفرنسية ، ولكن سرعان ما زهد فيها وفي الادب الرومانتيكي حين التحق بكلية سانت ماري في القاهرة ليتقن اللغة الانكليزية التي قادته الى التعلق باعلام الادب البياني ، وكان أشدهم اثرا على ذهنه : جوزيف اديسون ، وصموئيل جونسون . ولكنه لم يكد يتجاوز العشرين حتى تعلق بالنقاد الاجتماعيين ، اولئك الذين هدموا ، وبنوا ، في ثورة من الفكر بعيدين عن العنف ، وهذا الانحراف الاخير الى الآداب الاجتماعية نقل الصبي من دنيا الخيال العذب ، وتمجيد الطبيعة ، الى عالم الحياة في حقائقها المريرة ، وفي مسؤوليات الفرد نحو المجموع . وكان اثر « هـ. ج. ويلز » و « جورج برنارد شو » حاسما في هذا الاتجاه الجديد . وما كان يمكن للصبي ان تتيسر له مثل هذه الطفرة ، في اتجاهه الفكري لولا ما قرأ من قبل من آثار تولستوي ودوستويفسكي وغيرهما من اعلام الادب الروسي . ولما توفي تولستوي في عام ١٩١٠ ارتدى صبينا ربطة عنق سوداء حدادا عليه .

وفي عهد دراسته في كلية سانت ماري ، استدعته في احدى الامسيات مديرة الكلية الاميركانية للبنات في غمرة وقالت له : سأتخذ منك الليلة فارسا ... حارسا ... لترافقني مع احدى طالبات الكلية في عودتنا اليها . وفي الطريق من شارع قصر النيل ، الى « غمرة » علم الفتى من الفتاة التي يرافقها ، مع معلمتها الى الكلية ، ان اسمها « نعيمة » ثم لقد علمه القدر ، من بعد ان هذه الفتاة هي التي حسمت في تقرير مصيره ، ومنذ النظرة الاولى ، ما حسمت فيه فلسطين ، ومنذ مر بيافا مروره العابر في طريقه الى بيروت . وبعد ثلاث سنوات من تاريخ أول مقابلة بينهما جاءت الفتاة لتودع الصبي قبل زواجها . وعلى شاطىء النيل الجميل تقابلا مقابلتهما الاخيرة ، وعلى مشهد من النهر الخالد تعاهدا على ألا يحول حائل دون ان يجري حبهما جريانه الدائم ، كالنيل لا ينقطع له جريان في جفاف او فيضان . وكان الصبي حين ودعها وودع معها ملاعب طفولته وصباه ، ميمما شطر فلسطين ، على وشك ان يتم الثالثة والعشرين من عمره ، وكانت الحرب الكبرى الاولى تجتاز احرج مراحلها ، ولكن لم يكن بد مما ليس منه بد ... وقد لقي الصبي في فلسطين خلال خمسين عاما من حياته فيها ، الوطن الغالي الذي احبه حب مصر الغالية » .

٢ ـ الدكتور خليل طوطح

ولد في « رام الله » بفلسطين عام ١٨٨٧ وتلقى دروسه الابتدائية في مسقط رأسه ودروسه الثانوية في مدرسة برمانا الانكليزية بلبنان وبعد ان نال شهادتها قصد الولايات المتحدة وتخرج من « جامعة هارفرد » واكتسب الجنسية الاميركية .

وفي الحرب العالمية الاولى انخرط في الجيش الاميركي ، وعاد الى فلسطين بعد ان وضعت الحرب اوزارها ، وفلسطين يومئذ بحاجة ماسة الى هذا الطراز الناضج المبصر من المربين فتولى ادارة « دار المعلمين » في بيت المقدس .

وبعد انفكاكه عن العمل في « دار المعلمين » رجع الى الولايات المتحدة ونال « الدكتوراه » في العلوم والتربية وكانت الاطروحة التي قدمها بعنوان : « التربية عند العرب » .

وفي عام ١٩٢٦ عاد الى فلسطين وتولى ادارة « مدرسة الفرندز » برام الله وظل يعمل فيها شوطا واحدا حتى سنة ١٩٤٤ .

وقد كان المرحوم طوطح علما من اعلام التربية والتعليم بفلسطين ، مؤمنا أشد الايمان برسالة التربية الصحيحة ، مجاهدا في ثبات وعنف لادائها ، شديد التمسك بالنظام والمحافظة على المواعيد والروح الرياضية وجميع مقومات الشخصية المتكاملة ، لانه كان يعتقد ويعيش اعتقاده بان التربية السليمة المتناولة جميع نواحي الشخصية هي الاساس المتين لتكوين أمة تجاري الزمن .

وكان يؤمن كذلك بشرف مهنة التعليم وينفخ في تلاميذه ، وخاصة بدار المعلمين بالقدس روح الاعتداد بهذه المهنة وتقدير العاملين فيها .

وفي اواخر الحرب العالمية الثانية ، عاد الى الولايات المتحدة وانبرى في بسط حقائق القضية الفلسطينية لدى المراجع الرسمية الاميركية والشعب الاميركي ، باساليب هي خير ما يمكن الاستعانة به في اميركا .

وفي الوقت نفسه انكفأ على الدعاية اليهودية الصهيونية يمزقها وينتف ريشها ، وابدع في هذا المضمار اولا لانه هو من أجدر ارباب الكفاءات العلمية باتقان هذا العمل ، وهو ضليع من الانكليز الاعلين كعبا فيها من الاميركان ، وثانيا لانه خبير بفنون الالاعيب الاسرائيلية ، فكانت محاضراته مفحمة لهم ، كاشفة عن حيلهم !

وبعد ان تخلى الدكتور فيليب حتي عن ادارة « معهد الشؤون العربية الاميركي » في نيويورك تولاها الدكتور طوطح وقام باعبائه خير قيام . وفي المناسبات الصارخة كثرت مذكراته المحكمة الى « ترومان » ومجلس الشيوخ .

وانهارت فلسطين عام ١٩٤٨ وهو في الولايات المتحدة فشد الرحال الى الاردن والبلاد العربية عام ١٩٥٢ ليدرس عن كثب ظروف النكبة وملابساتها واسباب فشل الجيوش العربية ، وليتصل بالحكومات العربية بغية تنظيم العمل الدعائي في الولايات المتحدة . وما لبث ان عاد الى الولايات المتحدة ليجدد كفاحه في وجه الصهيونية ، وقد اتسعت خبراته وبرزت نشاطاته في هذا العمل الدقيق ، فما كان له في الدنيا بعد ذلك الا نحو ثلاثة اعوام حتى وافاه اجله عام ١٩٥٥ وهو كافر بالدول الاستعمارية وبالديموقراطية المزعومة ، وقد صور مشاعره وآلامه في كتابه الصريح « ديناميت في الشرق الاوسط » .

من آثاره القلمية :

١ ـ تاريخ القدس ودليلها ـ وضعه بالاشتراك مع المرحوم بولس شحادة صاحب جريدة « مرآة الشرق » المقدسية .

٢ ـ تاريخ فلسطين وجغرافيتها (وضعه بالاشتراك مع المرحوم عمر الصالح البرغوثي) .

٣ ـ التربية عند العرب :
The Contribution of the Arabs to Education

٤ ـ ديناميت في الشرق الاوسط :
Dynamite In the middle East

وقد صدرت ترجمة هذا الكتاب عن « دار العلم للملايين » ببيروت في جزءين في سلسلة « كتب طائرة » .

٥ ـ تطور فلسطين الحديث : دراسة قيمة نشرت في عدد خاص من المجلة التي تصدرها الاكاديمية الاميركية لدراسات العلوم السياسية والاجتماعية .

٦ ـ فلسطين تروي قصة التوراة :
Palestine Tells the Story of the Bible

نموذج من نثره : « في هذه الايام التي يتحفز فيها العرب للنهوض والاستقلال يجدر بهم ان يضاعفوا اهتمامهم بشؤون التربية لا سيما تربية العامة . فمن اهم الضروريات اليوم للعرب تربية عامتهم وتثقيف

اخلاق الفلاحين والقرويين وعدم الاكتفاء بفتح المدارس في المدن مثل القاهرة والاسكندرية ودمشق وبيروت والقدس وبغداد . وعلى التربية ان تعم كل فرد من افراد الامة ذكورا واناثا فتكون كالخمير الذي يخمر كل ذرة من الدقيق . يتحتم علينا ايضا ان نجعل تربيتنا كالهرم المؤسس على قاعدة متسعة واساس متين وذلك بتعليم كل العامة وتشييد المدارس الثانوية والفنية والعالية على أساس ثابت من التعليم الابتدائي . العرب اليوم احوج الى التعليم الابتدائي منهم الى التعليم الثانوي والعالي لانهم اذا اهملوا المدارس الابتدائية وتركوا الاكثرية الساحقة من الامة في جهلة عمياء وعلموا الفئة القليلة من الخاصة قلبوا الهرم ، رأسا على عقب وعرضوا كيانهم القومي للتزعزع » .

٣ ـ الدكتور فؤاد عيسى شطارة

ولد في رام الله بفلسطين عام ١٨٩٢ وتلقى علومه الاولية في مدرسة صهيون الانكليزية بالقدس وعلومه الثانوية في « كلية الشبان » (الكلية الانكليزية فيما بعد) ببيت المقدس وكان استاذه بالعربية المرحوم المعلم نخلة زريق .

وانتسب « فؤاد » الى الجامعة الاميركية ببيروت وامضى في كلية الطب مدة سنتين ، وفي اوائل الحرب الكبرى (١٩١٤) القى خطبة حماسية فسرها المسؤولون الاتراك تفسيرا سيئا ... فحاولوا القبض عليه غير انه هرب الى يافا ومنها سافر بحرلا الى الولايات المتحدة ، وأنهى دراسته الطبية في جامعة كولومبيا وتميز بكونه في طليعة الجراحين العالميين ، الامر الذي أهله لان يكون « عضوا في الجمعية الجراحية الاميركية » .

والمشهور عن هذه الجمعية الجراحية انها لا تقبل في عضويتها الا كل جراح تمت على يده مئة عملية جراحية تكللت بالنجاح . وكان ، رحمه الله ، الشرقي الوحيد في هـذه الجمعية . والجدير بالذكر اشتراكه مع الجراح الاميركي الشهير « جورج رايتر » بالتدريس في « كلية لونغ ايلاند » ببروكلين وفي مستشفى « الاطباء المتمرنين » وتناول سلسلة دروسه أربعة عشر فرعا من فروع الجراحة ، وكان أول درس القاه بتاريخ ١٤ كانون الاول ١٩٢٥ . وبالاضافة الى شهرة الدكتور شطارة كجراح نابغ فهو حجة في « مرض الدوالي » .

في الحقل القومي : والى جانب نبوغه في الطب وبراعته بالجراحة كان يعنى عناية خاصة بالشؤون السياسية العربية ، ففي عام ١٩١٦ تأسست في نيويورك « الجمعية التهذيبية السورية » وقد أخذت على عاتقها تقديم مساعدات مادية لتعليم المتفوقين المحرومين من أصل عربي، كما نظمت محاضرات ومناظرات في شتى المواضيع ، وقد لاقت اقبالا من الشطر المغترب في الولايات المتحدة ، وعلى الخصوص القاطنين منهم في نيويورك وبوسطن .

وكان في عداد الاعضاء المؤسسين لهذه الجمعية : الدكتور فيليب حتي والياس جورج عوده والدكتور سنيم الخازن (٢) وبطرس شحاده والدكتور فؤاد عيسى شطاره والدكتور أمين خير الله وسواهم .

وفي عام ١٩٢٣ تأسست « جمعية النهضة الفلسطينية » برئاسة الدكتور شطاره وتعتبر اول جمعية سياسية عربية في الولايات المتحدة هدفها الدفاع عن فلسطين (٣) العربية وشرح ظلامتها .

وفي عام ١٩٣٦ تأسست « الجامعة العربية » في نيويورك فأهل الحماس المنقطع النظير الدكتور شطاره لرئاسة هذه الجمعية التي ضمت شخصيات عربية اشتهرت بالغيرة على القضايا العربية .

وظل الدكتور شطاره يشغل رئاستها حتى انفرط عقدها في اعقاب عام ١٩٣٩ ، ويعزى النجاح الكبير الذي أصابته هذه الجمعية للدكتور شطاره الذي عمل كثيرا ، وضحى كثيرا في سبيل الغاية التي تأسست « الجامعة » من أجلها .

وخلال وجود « الجامعة العربية » قيد النشاط قدر لها ان تعقد مؤتمرين عربيين الاول في مدينة « ديترويت » عام ١٩٣٨ ومن الذين حضروه : المرحوم فخري البارودي وفؤاد مفرج وفخري الشيخ الراوي.

وعقد المؤتمر الثاني في مدينة « فلنت » عام ١٩٣٩ ، وفي أواخر عهدها زار الولايات المتحدة محمد جميل بيهم واميل الغوري وجمعا تبرعات سخية لمنكوبي الثورة الفلسطينية . وفي كل ثورة شب لظاها بفلسطين كان الدكتور شطاره يغذيها بما يجمع من تبرعات ويدافع عن عدالة القضية الفلسطينية بالمحاضرات والمناظرات .

« كانت (٤) له الكلمة العليا في الاوساط العربيّة ، يوجه الجوالي العربية بالخطابة والتاليف ويدعمها بنفوذه الكبير لدى المراجع الاميركية » .

وتميز هذا العربي الكبير بانه كاتب بارع وخطيب مفوه بالعربية والانكليزية ، وفي أوائل عام ١٩٤٢ فجع العرب بهذه الشخصية الفذة وفقدوا علما رفع الاسم العربي عاليا وأدى للقضايا العربية اجل الخدمات في أوسع المجالات !

٤ ـ علي رشيد شعث

ولد « علي » في مدينة « غزة » بفلسطين عام ١٩٠٨ وفي مطلع الحرب العالمية الاولى نزح مع أفراد اسرته الى « بيت المقدس » وتلقى دروسه في مدارسها حتى احرز شهادة « المترك » الفلسطيني ولم يبتعثه المسؤولون عن التعليم الى خارج فلسطين لصغر سنه بل عينوه مدرسا في ثانوية صفد وأرسلوه بعثة الى الجامعة الاميركية ببيروت عام ١٩٢٦ ، وخلال سني دراسته الجامعية تحمل مسؤولية تعليمه وقام بالتزاماته نحو عائلته التي اصطحبها الى بيروت .

وفي عام ١٩٢٩ أنهى دراسته الجامعية وعاد الى فلسطين يحمل بكلوريوس في العلوم وعين استاذا للرياضيات في ثانوية عكا ولقي تقديرا ممن زاملوه وعملوا معه في قطاع التعليم ثم عين مديرا لثانوية صفد فمديرا لثانوية الخليل حتى عام ١٩٤٢ حيث نقل مديرا للعامرية في يافا .

وفي الاربعينات من القرن العشرين تحسس الواعون من شباب فلسطين الداء الذي انتاب البلاد من الانتداب الى الصهيونية ، وأتاحت الظروف القاسية للمخلصين من ابناء فلسطين القيام بدورهم الطليعي ازاء المحن التي يبلوها الوطن المغصوب ، فقام « علي » مع نفر من اخوانه المثقفين بما يحتمه الواجب القومي .

وكانت الاضطرابات تسود فلسطين منذ وطأتها اقدام المستعمر ، وكانت الاضرابات متصلة الحلقات ، وكان أشدها الاضراب العام الذي قام به العرب عام ١٩٣٦ واستمر ستة شهور احتجاجا على اغراق فلسطين بافواج المهاجرين اليهود ، ومن الطبيعي أن يشارك الطلاب

---

١ ـ آل شطاره برام الله فخذ من اسرة طوطح التي تعود بعصبيتها العشائرية الى « حمولة الشراقي » برام الله .

٢ ـ نقل الى العربية بامانة رواية « آيفانهو » لولتر سكوت ونظم بالانكليزية قصائد رائعة نشرتها مجلة « العالم السوري » .

٣ ـ في خريف عام ١٩٣٠ بارح فلسطين الى المهجر وفد عربي قوامه الامير عادل أرسلان وعيسى بندك من قبل « لجنة منكوبي فلسطين » وكان يرئسها سماحة الحاج أمين الحسيني لاستنداء أكف المغتربين ، فلقي في اوساطهم كل حفاوة واريحية ، وكان يشرف على سير التبرعات اعضاء « الجمعية السورية الفلسطينية » ونفر من أهل النخوة امثال المرحوم الدكتور فؤاد شطاره والمرحوم حبيب ابراهيم كاتبه وصالح حنضل وعبد الله الجودة وغيرهم .

٤ ـ أدبنا وادباؤنا ص : ٣٠٦ : جورج صيدح .

العرب في هذه الاضرابات والاحتجاجات دفاعا عن « غدهم » المجهول ، وكان طلاب « العامرية » الثانوية التي يديرها « علي » اول المضربين ، وقد حرضوا اخوانهم الطلاب على ان يحذوا حذوهم ، وهنـــا ثـــارت ثائرة السيد « فرل » مدير معارف فلسطين البريطانـــي فأمـــر بفرض الغرامات على المعلمين والطلاب معا لكن « عليا » رفض الانصياع لهـذه الاوامر ... وأصر « فرل » على رأيه ، الامر الذي حدا ب « علـــي » لتقديم استقالته من الخدمة في معارف فلسطين لكن « فـــرل » رفض قبولها فتقدم « علي » بطلب الى اللجنـــة الطبية العليـــا بالقدس ، فاشارت هذه باحالته على التقاعد (مع انه لم يكن بعد قد بلغ الاربعين من عمره) بعد ان سلخ في قطاع التعليم ثمانية عشر عاما وقـد كسب خلالها مودة وتقدير من زاملوه وتلقوا العلم على يديه .

وفي عام ١٩٤٦ عمل « علي » في البنك العربي بالقدس وبعد فترة عين مديرا لفرع الاسكندرية الذي انشيء حديثا ، وفي تلك الايام لـــم يكن سكان الاسكندرية يعرفون شيئا اسمه « المصارف العربية » بـــل كانوا يعرفون « المصارف الاجنبية » ويؤمنون بها ايمانا عميقا لانها كانت من اختصاص الفرنسي والانكليزي والايطالي .

وليحطم « علي » هذه « الاسطورة » عمل جاهدا في سبيل جـذب « الاسكندراني » الى « مصرف عربي » وسهر سهرا متواصلا حتى بلغ « البنك العربي » القمة في سمعته وامانته واقبلت كبريات الشركـــات على التعامل معه ، فخطا خطوات واسعة واصاب نجاحا كبيرا .

وفي الاسكندرية تفاعل « علي » في الحيـــاة الاجتماعية ، ورغـــم مشاغله لم ينس مهنة التعليم فكان على اتصال دائم باساتذة الجامعات ورجال العلم وانتخب عضوا في كثير مـــن الجمعيات الخيرية والنوادي الرياضية ، والى هذه الظاهرة اشارت جريدة « القاهرة » في عددهـا رقم ٥١٣ وتاريخ ١٦ مارس ١٩٥٥ بقولها :

« علي شعث مدير البنك العربي في الاسكندريـــة ورئيس « نادي فلسطين » فيها قضى ١٨ سنة في مهنـــــة التعليم بمدارس فلسطين ومعاهدها المختلفة ، وقد كان مديرا للمعهد التجاري الحكومي فـــي فلسطين وله كتب علمية ما زالت الى اليوم تدرس في فلسطين والاردن وعين عام ١٩٤٦ مديرا للبنك العربي عند انشائه في الاسكندرية واندمج في الحياة الاجتماعية وعرف في جميع أوساطها حتى صار كواحد مـــن ابنائها وهو عضو في كثير من الجمعيات الخيريـــة والنوادي الرياضية بالمدينة .

يعتبره الفلسطينيون بالاسكندرية أبا لهم ، يرجعون اليـــه اذا أعوزتهم الحاجة وهو الذي يرعى شؤون الطلبة الفلسطينيين ويتفاهـم مع المسؤولين في شتى شؤونهم ، وقد أسس « نادي فلسطين » فـــي الاسكندرية ١٩٥٣ وانتخب رئيسا له حتى عام ١٩٥٦ ، يؤمن بحقـوق المرأة وقد ساهم في منح سيدات النادي حق انتخاب اعضاء اللجـــان المختلفة ، وهوايته المفضلة هي الموسيقى والمطالعة والتحدث عن ظلامة عرب فلسطين ، وهنا اذكر حادثين جريا له في الاسكندرية :

ـ بعد وقوع النكبة الاولى في فلسطين تدفقت جمـــوع اللاجئين العرب على الاسكندرية بحرا فكان « علي » يستقبلهم ليل نهار علـــى الميناء ويؤمن اقامتهم وحاجاتهم ويخفف عنهم منغصات الهجرة ولوعـــة الاغتراب حتى أطلق عليه الكثيرون لقب « قنصل فلسطين » .

ـ ونتيجة للنكبة الفلسطينية التي عصفت بعرب فلسطين عـــام ١٩٤٨ انقطعت موارد الكثيرين من الطلاب الفلسطينيين الذين يدرسون في جامعات الجمهورية العربية المتحدة وليوفر لهم لقمة العيش وطلب العلم كان يتصل بالمسؤولين المصريين الذين تجاوبوا معه في هذا السبيل وعلى رأسهم وزير المعارف الاسبق الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا الذي كان يعجب من « علي » كيف يترك عمله في البنك العربي من أجل انجاز شؤون طلابية ، وذات يوم سأله : « لماذا انت مهتم بهذه الشؤون وانت رجل مال ؟ » فرد « علي » عليه بقوله : « ان هؤلاء الطلاب هـم ابنائي وقد صرفت في مهنة التعليم ١٨ سنة » فرد السنهوري بقوله : « الان افهم مشاعرك واخلاصك ! » .

وفي عام ١٩٥٧ ترك « علي » عمله في البنك العربي في الاسكندرية وعين مديرا عاما لبنك الرياض في السعودية وامضى فيه ثمانية اعـوام وفي عام ١٩٦٤ عاد الى الاسكندرية مريضا بالقلب ، ورغم قسوة هـذا الداء ظل وفيا لوطنه المغصوب ... فكان يحاضر ويتحدث عـن مأساة العرب في الفردوس المفقود !

وفي الحرب التي نشبت بين اسرائيل والعرب عـام ١٩٦٧ كـــان « علي » متفائلا بانتصار امته وعودته الى « الارض الطيبة » واذ بـه يصدم بالانكسار الذي مني به العرب في الخامس من حزيران ... فلـم يقو قلبه الضعيف على تحمل هذه الصدمة فقضى نحبه في الثالث من شهر سبتمبر ١٩٦٧ وفي اليوم التالي دفن في مقبرة المنارة بالاسكندرية تاركا وراءه سمعة عطرة في الحقل القومي .

من آثاره القلمية : صنف « علي » طائفة مـــن الكتب العلميـــة المدرسية لا تزال تدرس في بعض مدارس الاردن ومنها :

١ ـ سلسلة أصول الحساب الحديث (بالاشتراك مـع آخرين) صدر عام ١٩٤٥

٢ ـ من طرائف العلماء ـ صدر عام ١٩٤٥

٣ ـ سلسلة اصول الهندسة الحديثة (بالاشتراك مع آخرين) صدر عام ١٩٤٦

٤ ـ من البنسلين الى القنبلة الذرية ـ صدر عام ١٩٤٦

٥ ـ المدير العربي والخطر الاسرائيلي ـ صدر عام ١٩٦٦

٦ ـ اتجاهات جديدة في صراعنا مع اسرائيل ـ صدر عام ١٩٦٩

ومن مؤلفاته التي حال الموت دون انجازها ودفعها للمطبعة :

أ ـ كتاب ضخم هو عبارة عن عدة كتب في اقتصاد اسرائيل .

ب ـ مجلد بعنوان « الاعتمادات المستندية » .

بالاضافة الى محاضرات علمية وتجارية وفلسطينية كان يلقيها في الندوات والجمعيات .

نموذج من نثره : « آفاق العالم العربي منذ الخامس مـــن يونيه سنة ١٩٦٧ على نكسة خطيرة هزته من الاعماق ، وفتحت عيون ابنائـه وقلوبهم على حقيقة الخطر الذي نكبوا به منذ الثاني من نوفمبر عـام ١٩١٧ وليس عارا ان تهزم الامم ، فتاريخ أعظمها واقواها شوكة مليء بالهزائم ولكن العار كل العار ان تقتل هذه الهزائم روح الكفاح فينـا ، وتميت في نفوسنا العزم والتصميم على الوثوب ثانية عمالقة ، مرفوعي الهامات ، امضى عزيمة واشد ايمانا بالنصر مما كنا عليه قبل النكسة.

لقد أرخ عمر بن الخطاب لتاريخنا بيوم هزيمة ، هو يوم الهجرة، على كثرة ما احتشد في تاريخ الاسلام من أيام النصر ، ذلك ان « عمراً » اعتبر نكسة الهجرة نقطة تحول في تاريـــخ المسلمين والعرب ، وبـدء انتصاراتهم العظيمة التي دكت صروح فارس والروم ، ونشرت ، في اقل من مئة عام ، راياتهم خفاقة في العالم كله من اواسط الصين حتى مياه الاطلنطي .

فلنمض اذن في كفاحنا اشداء ، عامري الايمان بالنصر النهائي ، لا نبالي بتكتل قوى الشر في وجوهنا ، ثابتين كالطود لا نتـــرك لليأس الطاغي سبيلا الى نفوسنا ، فليست نكستنا الحالية بالقاصمة ، ومـا هي الا محنة عادية من المحن التي يستنهض الله بها ما استكان مـــن عزائم الامم ... ولنسر في طريق واضح المعالم ، معتمدين الحقائـــق الصريحة ، ولو كانت مرة قاسية ، سبيلنا الوحيد للعمـــل من أجـل الحفاظ على كياننا » .

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

ويبقى الحب

الى القنديل الابيض .. الذي يضيء في قلبي

حبيبتي !
اكتب والدموع في عيني
تنبع من عينيك
واحرفي تجهش بالبكاء
في يديك
وحبنا المهدور حائر
يدور كاللقيط في الشوارع العمياء
ويلعن الرجال والنساء
يود لو تنفجر الجبال بالدخان
يندفع البركان
ويحرق الاخضر واليابس والبنيان
لكننا .. وحبنا لا يعلم الحقيقة
نبكي على ضياعه .. دقيقة دقيقة !
قاسية ايامنا
جامحة احلامنا
لكننا نبقى على الطريق
نحلم بالحياة يا حبيبتي
نحلم بالشروق

— ٢ —

حبيبتي
لاننا الضحية
للعالم المجنون
و العوائد الغبية
لاننا بالحب لا نعرف
ما يفرضه البشر
من القيود السود
والمشانق السوداء للأحباب
خلّي دماءنا
تظل في الدروب
شواهدا .. لضائع القلوب
ومشعلا ..
وجنة ..
وموعدا ..

— ٣ —

حبيبتي !
ان يسألوا عني فلا تجيبي
وانتفضي في وجههم
أعرفه ..!
لكنه ما كان لي حبيبي !
ان يسألوا عني فلا تجيبي
وان مررت عنك لا تلتفتي
كأنني أمر عن غريب !
لكنني المح في عينيك
ما احس في عيني من لهيب !
يمتد ما بيني .. وما بينك
جسر الحب والطيوب
حبيبتي انت على طول المدى
فهل ترى اسمع عبر جسرنا الممدود :
يا حبيبتي ؟ !!

— ٤ —

حبيبتي !
يجرنا الزمان يا حبيبتي
يشدنا .. يبعدنا
عن موكب الهوى
ويسدل الستار دون حبنا
وليلة تمر اثر ليلة !
لكن في قلبي يا حبيبتي
النهار سرمدي
قنديل حبك الاخضر ابدي !

عمان — الاردن

مامون جرار

« ماما ! جوربي في حاجة الى رفو . ــ ماما ! اشعر بألم في راسي . ــ ماما اشتري لي طابة . ــ ماما ! زاهر ضربني . ــ ماما ! اعطني قرشا » .

اولاد كثيرون . عشرة . وقد افنت امهم كوثر بعض شبابها وصحتها ونشاطها في تربيتهم واجابة طلباتهم . ان مرجع الاولاد الوحيد هو امهم . هي وحدها تلزم المنزل . اما زوجها فهمي فهو يقضي نهاره في حانوته حيث يبيع الملابس الداخلية . وعند المساء يغلق حانوته ويعود الى منزله . وهناك تعدد له كوثر مطالب الاولاد .

عقد زواج كوثر وهي في العشرين من عمرها . وكانت في ذلك الحين رشيقة القوام جذابة ملامح الوجه مشرقة العينين حلوة الصوت . اما الان فهي ممتلئة الجسم قد ارتخت اسباب بشرة وجهها قليلا ، وقد تجعدت صفحة وجهها بعض الشيء بعد ان هبت عليها رياح التعب السموم . غير انها ما تزال تتمتع بالشيء الكثير من الانوثة . في صوتها نفحة مغرية ، وفي مشيتها موسيقى خفية مطربة ، وفي عينيها شباب خبيء . وكل ما تفتقر اليه لتعود الى ما كانت عليه في اول شبابها هو الراحة والعناية بجسمها ووجهها . وكلما همت بتغيير مجرى حياتها شغلها الاولاد عن هدفها وجروها الى عالمهم بالحاحهم وعويلهم .

ما اجمل تلك الصورة الكبيرة المعلقة على جدار غرفة النوم ! لقد التقطت حينما كانت هي وزوجها يقضيان شهر العسل في لبنان . لباس العرس المخرم الجميل ينسجم مع رقة جسم كوثر وشبابها وحلاوة الامل المدخرة في وجهها . بدت في تلك الصورة كزنبقة كبيرة تضم بيدها زنابق صغارا .

وقد ظهر فهمي بجانبها لاصقا بها من الجهة اليمنى بجسمه الممتلىء بالحيوية كانه اختطفها من الزمن اختطافا اذ نمت ابتسامة الظفر الخفيفة المنتشرة على وجهه على اغتباطه بالغنيمة التي فاز بها .

كان فهمي في اول عهده بالزواج موقنا ان الزواج دنيا من الحب . ان التغير الذي طرأ على حياته هو الذي غرس ذلك اليقين في قلبه . كان عزبا وحيدا لم تؤنس شبابه فتاة ولم تحقق اماني قلبه حبيبة . وقد شعر في شهر العسل ان جميع مطالب نفسه حققت . اما اليوم فانه يشعر انه اصبح زوجا وابا لا حبيبا فحسب ، وانه باشرافه على افراد اسرته والسعي لهم اضحى شبيها برئيس دائرة حكومية مسؤول عن الموظفين الذين يعملون تحت ادارته .

المنزل عامر بالاولاد ، نابض بحركاتهم ، حي بصخبهم وضحكهم ولعبهم . انه دنيا صغيرة استقل فهمي بادارتها .

(المنزل موحش خرب لان ظل الطمانينة اختفى من انحائه ، فلا راحة ولا لذة ولا بهجة ولا هناء) .

الحانوت الذي يعمل فيه فهمي عامر بالوان الملابس الداخلية . والعملاء كثيرون والربح وافر . فهمي تاجر موفق بلا ريب .

(الحانوت منهار الاساس لان عددا كبيرا من النساء وبينهن الحسان الفاتنات يترددن اليه . انهن يسرحن انظارهن في البضائع التي تعرض عليهن ليشترينها بينما يسرح فهمي نظره باعجاب في آيات جمال وجوههن وعيونهن ، ويستمع في طرب الى لحن حديثهن) .

ما اكثر صواحب كوثر ! انهن كثيرات التردد الى منزلها . يزرنها دائما . ولكن كوثر لاحظت منذ اسبوع ان بين اولئك الصواحب منافسات . انهن ينافسنها في حب زوجها وفي كسب قلبه والاستئثار به . يبتسمن لها ويسايرنها ويتحببن اليها ، ولكن قلوبهن تنطوي على شيء اخر ، على المنافسة والانانية .

ــ حبيبتي كوثر ! ماذا جرى لك ؟ كل شيء فيك قد تغير . الا تنظرين الى وجهك في المرآة ؟ لقد كنت منذ ثلاث سنوات شابة جذابة . وانت الان عجوز كامي .



بقلم عبد الحميد الانشاصي

(لقد لعبت دور الزوجة وقضي الامر ، فما عليك الان الا ان تلزمي بيت ابيك . انني اصغر منك سنا . امتاز عليك بنحافة جسمي واشراقة وجهي . انك بيضاء كالشمعة ولكنك مجردة من حرارة الشباب كالشمعة التي لا شعلة لها) .

قالت الفتاة ذلك وهي تتمايل غنجا مطلقة الحرية لثغرها الصغير المورد ليضحك ويقهقه كما يشاء تحت سماء مظلمة مؤلفة من شعرها الاسود الغزير المخيم على وجهها .

فقالت لها كوثر في ابتسام خفيف ورزانة وثقة :



ــ وان يكن ؟ لقد تزوجت ورزقت عشرة اولاد . وماذا تنتظرين بعد ولادة هذا العدد الكبير من الاولاد ؟ انني لا اغذي اولادي بالطعام فحسب بل بدمي وماء شبابي ورونق صحتي ايضا . عناية وكد وسهر . سوف تقدرين عملي كم بعد ان تتزوجي وترزقي اولادا مثلي .

(كل هذا الاشراق الذي يبدو على وجهك الصبيح يزول ، وهذه الضحكات والقهقهات الحلوة تتلاشى ، وتلك الحيوية المتدفقة من لسانك ويديك وراسك تنطفىء) .

اخذت الفتاة تحدق الى شعر كوثر ، وتقترب منها شيئا فشيئا . وكوثر تنظر اليها مستغربة لا تعرف لذلك سببا ثم قالت لها :

ــ ماذا بك ؟ لماذا تنظرين الي هكذا ؟

فابتسمت الفتاة ابتسامة جافة ، وقالت زاوية ما بين عينيها :

ــ لقد شبت يا كوثر . على راسك ثلاث شعرات بيض . له ! له !

(اما زوجك فهو ما زال شابا بمظهره وبعاطفته) .

فقالت كوثر في هدوء وبلا اكتراث :

ــ ليس في ذلك غرابة ، فانا الان في الخامسة والثلاثين من عمري ، غير انني امتع بصحة جيدة .

(ما اوقحك ، وما اثقل دمك !)

فقالت الفتاة في جد ورزانة :

ــ ولكن الصحة الجيدة ليست كل شيء في المراة . ان الصحة ضرورية للرجل . اما المراة فلا غنى لها عن الجمال مضافا الى الصحة الجيدة .

(الحق انك امراة مغفلة غبية) .

ثم صمتت برهة ، وبعد ذلك قالت رافعة حاجبيها :

ــ عجب ! ان زوجك يبدو شابا كانه اصغر منك سنا .

(انه يصلح لي زوجا . من الخسارة ان يظل زوجا لك) .

فقطبت كوثر ، ثم قالت في استنكار :

ــ مهما يكن من شيء فان زوجي يحبني ويؤثرني على كل النساء .

(ما دخولك فيما بيننا يا حيوانة ؟)

ثم نهضت الفتاة لئلا يتطور موقفها من صديقتها فينشا بينهما خلاف ، وقالت بعد ان اطلقت تنهدة عميقة طويلة :

وفقكما الله يا عزيزتي ! استودعك الله !

(انك لا تدرين ايتها المسكينة ان زوجك مفتون بي ويتمنى ان يتخذني زوجة له) .

ثم خرجت وكوثر تحدق في ظهرها بسخط وغيظ .

(اصوات من الداخل : اخرجي يا كلبة . هل تريدين ان تختطفي زوجي مني ؟ انك ان فعلت ذلك قتلتك . اؤكد لك ذلك . اياك ان تزوريني مرة ثانية) .

(منظر من الداخل : تركل كوثر الفتاة يقدمها فتوقعها على درجات مدخل الدار) .

وفي ذات يوم دخلت على كوثر صديقتها الوفية ابتهاج الفاتنة . وقد تعودت صديقتها ان تأخذ معها حريتها في الحديث بلا كلفة ، وان تكاشفها بما يجول في ذهنها دون حيطة . ولكنها في هذه المرة امضت في الحديث عن زوج كوثر في جرأة جعلت هذه تفكر في الامر تفكيرا جديا .

قالت ابتهاج وهي تفتح عينيها الدعجاوين الواسعتين :

ـ لقد كنت اظن ان زوجك جامد ثقيل الظل حتى حادثته في حانوته منذ اسبوع ، فتبين لي انه خفيف الروح حلو النكتة . انني اهنئك به يا عزيزتي ، واصارحك بانني اصبح امراة سعيدة اذا تزوجته ـ اذا تزوجت رجلا مثله .

(ليت في امكاني ان آخذه منك واتزوجه !)

ثم قهقهت في بساطة ومرح ومداعبة. ولكن كوثر لم تاخذ كلام صديقتها في بساطة ، فقد ذكرها كلامها ذلك الحديث الذي جرى بينها وبين تلك الفتاة الجريئة التي ادعت لها ان شبابها ولى وان جمالها تبخر . لذا شكت في هدف صديقتها ابتهاج . ايقنت انها ليست انبل خلقا من تلك الفتاة . ان ذلك لم يكن من خصالها من قبل : ان تخدع وتغدر . وكوثر تخشى ابتهاج لانها ذات جمال ساحر. انها مغرية بدلالها العجيب وجرأتها التي توقع ارزن الرجال في حبائل اغرائها ، فان في عينيها الدعجاوين الواسعتين التماعا يدل على ان صاحبته خالية البال من مشاغل الحياة وانها لهذا السبب تفتن ارضاء حبيبها .

قالت كوثر لصديقتها في جمود يلفت النظر :

ـ ألى هذا الحد اعجبك زوجي ؟

(وانت ايضا يا ابتهاج ؟ اياك ان تعكري صفو صداقتنا . ان هذا لم اتوقعه من صديقة وفية مثلك) .

فارتسمت ابتسامة خفيفة على عيني ابتهاج الواسعتين ، وقالت بصوت منخفض :

ـ هل صدقت ما قلته لك يا حبيبتي ؟ ان زوجك كاخ لي .

(لا بد من اتخاذه زوجا لي سواء اقاومت ام لم تقاومي) .

★

واذن فلا بد من تغيير مجرى حياتها . ينبغي لكوثر ان تخفف من وزنها وتنحف خصرها وتعيد الابتسامة المشرقة الى ثغرها الذابل قليلا وخديها المتغضنين بعض الشيء . في امكانها ذلك اذا استعملت قوة ارادتها .

ان خوفها من ان يقع زوجها في حبائل اغراء صاحباتها ، وما تدخره من غرام به ـ جعلاها تفكر في تغيير مجرى حياتها ، وقد ايقنت بانها لا بد ان تنجح في النهاية . صارت تكثر من تناول الخضروات واللحم الاحمر وتقلل من تناول الخبز ، وجعلت تقوم بتمارين رياضية في صباح كل يوم .

وكانت في اثناء ذلك تراقب زوجها مراقبة شديدة . وكانت من قبل تنشرح صدرا كلما قدم اليها زوجها هدية ثمينة من ذهب او ماس . اما الان فانها لا تقبل الهدايا من زوجها الا اذا كانت اقمشة رائعة الالوان والرسوم لكي تفصلها ثيابا لها فتجدد حبه لها كلما ارتدتها ووقع نظره عليها .

بدأت تفهم زوجها ذلك حينما جاءها ذات مساء وفي يده علبة صغيرة . قال لها :



عبد الحميد الانشاصي

●

ـ حبيبتي كوثر ! احزري ما جئتك به في هذه العلبة .

ـ عقد ؟

ـ كلا .

ـ اساور ؟

ـ كلا .

ـ واذن فهو قرطان .

ـ لقد حزرت . اجل انهما قرطان جميلان قرطان من ماس .

فجلست على حضنه ، وكان ساعتئذ جالسا على كنبة . وقالت وهي تداعب ذقنه في ابتسام جذاب :

ـ اشكرك ياحبيبي ! لا شك ان هديتك قيمة . ولكني اوثر على هذين القرطين قطعة من القماش افصلها ثوبا لي .

ففتح فهمي العلبة ، واخرج منها القرطين ثم قال :

ـ انظري ما اجمل هذين القرطين . انهما يساويان مئات من قطع الاقمشة . اقمشة ! ان الاقمشة رخيصة ، فكيف تؤثرينها على هذين القرطين ؟

ولكن القرطين وان كانا من الماس لا يبرزان محاسن جسمها . لقد خف وزن جسمها الان فاستردت رشاقته السابقة . ولا يظهر تلك الرشاقة الا الفساتين الانيقة المحكمة التفصيل . ان الجسم الجميل يفوز بثلاثة ارباع الجمال الذي تمتاز به المرأة . اما جمال الوجه فلا يدخر الا ربع جمالها . واذن فما الفائدة التي ترجى من القرطين الماسيين ؟ تناولت القرطين من زوجها في تؤدة وهي تشكره بنظرتها وابتسامتها وقالت :

ـ لا شك انهما قرطان ممتازان . ما اروع هديتك يا حبيبي ! ولكن لا تنس في المرة القادمة انتهدي الي قطعا جميلة من الاقمشة.

(وبعد ذلك اعرف كيف ادللك واشغلك عن غيري من الحسان)

فعبث بشعر رأسها في حب واعجاب وقال .

ـ كما تشائين يا حياتي .

(انك تبدين الان جميلة فاتنة . ولست ادري لذلك سببا . ان قوامك رشيق وعينيك ساحرتان . كل شيء فيك تغير . عجيب كيف تمت هذه المعجزة ؟ لقد عدت فاتنة كما كنت في اول عهدنا بالزواج) .

وراح يقبل ثغرها وخديها وعنقها في شره. فشعرت كوثر بديمة من الغبطة والسعادة تهطل على قلبها الظامىء في هدوء حتى تفجر منه سيل من الحب والطمأنينة فجرى في عروقها الراقصة مغذيا بالحب والطمأنينة كل عضو من جسمها . فترعرعت ذراعاها ، ونهد صدرها ، وتفتح ثغرها وعيناها ، ولمع وجهها واسنانها .

قالت وهي تشير باصبعها الى الصورة الكبيرة التي التقطت لهما وهما في شهر العسل :

ـ انظر الى صورتنا المعلقة على الجدار . الا تذكر تلك الايام يا حبيبي ؟ ايام شهر العسل التي قضيناها في لبنان ؟ كنت في ذلك الحين صغيرة السن . كنت عروسا ـ فتاة فجة . اما الان فانا زوجة ـ امرأة ناضجة . لم اكن في ذلك الحين افهمك على حقيقتك . اما الان فقد تغلغلت في تلافيف نفسك وقلبك فادركت ما كان خافيا علي .

(انت الان لي ـ لي وحدي ـ ان اجمل الفتيات تعجز عن ان تختطفك مني) .

وبعد هنيهة طوقت عنقه بيديها في شوق واغراء وقالت :

رفيق الطريق

رفيـق الطريـق وقيت العثـار   بمسراك مجـد السرى والرجـاء
تسير فلا الشوك يثني خطاك   ولا الموحشات وعصف الشتـاء
ولا مـــا يهـز جنان الهزبـر   يسر بأذنيـه همـس الفنـاء
وأشبـاح كـاسـرة ترتـوي   نواجذهـا بنزيـف الدمـاء
وان يـدا مـن وراء الغيـوم   تزيح عـن الـدرب نجـم السماء
وعزمك وسط الظـلام الكسيح   وأهوالـه شعلـة مـن ضيـاء

تجـد وتعلـم ان الطريـق   أمامـك ترغـي بآفاتهـا
وتمضي وتعـرف ان الرمـال   يطايرهـا نفـخ حياتهـا
وان الدمـى تنشر القهقهات   اذا مـا ذكـرت بحاناتهـا
وان الكهوف التي فـي الصدور   تفـح بمـا فـي قراراتهـا
رفيقاك صمـت يمط الشفـاه   يـذري الصعـاب وويلاتهـا
وأشلاء مـاضين قـد بعثـرت   تنـير الطريـق بهالاتهـا

جامعة بغداد   باقر سماكة

وقـالت

ـ الا تحن الى يوم عرسنا ؟

(انني احن اليه كثيرا) .

فتأمل الصورة ، وبعد قليل اجاب :

ـ محال ان انسى يوم عرسنا .

فنهضت كوثر ووجهها يفيض ابتساما ثم قالـت :

ـ سأعود الان عروسا كما كنت .

وفتحت خزانتها ، ثم تناولت ثوب العرس ولبسته . ووقفت امام زوجها قائلة في مرح مزقزق :

ـ كيف تجدني الان ؟ الا ابدو عـروسـا كمـا كنت ؟

ـ تماما . انك تبدين فاتنة في ثـــوب العـرس .

ثم جلست بجانبه والقت يدها على يـده في غبطـة وقالت :

ـ ها قد تزوجنا مرة ثانية .

فاستغرق فهمي في الضحك ، وضمها الى صـدره

وفي الايام التالية كانت كوثر ترتدي ملابس محكمة التفصيل جذابة الالوان والنسيـج وتعرض نفسها على زوجها في اعجاب منها بنفسها ومنه بهـا .

ومع ذلك فقد اخذت تراقب زوجها وتفتش جيوبه لترى هل يحتفظ برسائل وصـور عشيقاته ، ولكنها لم تعثر على شيء من ذلك وانما عثرت على تذكرة من تذاكر السينما .

قالت له ذات يوم :

ـ اراك شديد الولوع بالافلام السينمائية .

(اخشى ان تكون لك في دور السينمـا عشيقات ينتظرنك) .

ففكر فهمي قليلا ثم قال :

ـ ما الذي جعل هذا الفكر يتطرق الـى ذهنـك ؟

(هل انت تراقبينني يا كوثر ؟) .

فابتسمت ثم اجابت بنغمة منخفضة خجلة:

ـ لقد وجدت في جيبك تذكرة سينمائية .

ـ آ ! انني اتردد الى دور السينما من حين الى اخر .

(لقد اصطدتني الان يا خبيثة) .

ـ وحيدا ؟ تذهب وحدك ؟

(كيف تنساني ؟ هل هناك فتاة تشغلك عنـي ؟)

ـ في بعض الاحيان اشعر بسأم فابـرده بمشاهدة فيلم سينمائي .

(يا لك من زوجة بارعة . انك تحققين معـي) .

ـ لماذا لا تاخذني معك ؟ هل هناك فتـاة تشغلك عني ؟

(طبعا لا ، لانني عثرت على تذكرة واحدة لا تذكرتين) .

ـ فتاة ؟! هل هذا معقول ؟ انـنـي اعلـم انك مشغولة دائما بالاولاد والعناية بهم . وهذا ما يضطرني الى مشاهدة الفيلـم السينمائي وحدي .

ـ كيف تجد متعة في مشاهدة الافلام دون ان اكون بجانبك اشاركك في النظر اليها ؟ ان هذا من عادات الاعزاب لا من عـادات المتزوجين . من الان فصاعدا نذهب الى دور السينما معا . ينبغي لنا ان نشترك في كل شيء : في تناول الطعام ، وفي الحديث ، وفي مداعبة الاولاد ، وفي مشاهدة الافـلام السينمائية . ان ذهبت الى دور السينمـا وحدك بعد الان نفرت منك وابتعدت عنك . الست شريكتك في حياتك ؟

وبعد ذلك الحديث الذي جرى بيـن الزوجين صار فهمي يستصحب زوجته كلما ذهب الى احدى دور السينما لمشاهدة فيلم فيها . وكان المارة يلقون نظرة اعجاب لرشاقة قوامها وجمال ثوبها . وقد أيقن الناس ان الزوجين متفقان يحب كلاهما الاخر .

وقد استمرت كوثر على ممارسة التمارين الرياضية والطريقة الغذائية وارتداء عـدد كبير من الفساتين المختلفة لتجدد جمالهـا وفتنتها في كل فستان ترتديه فتجدد بذلك حب زوجها لها . وبذلك تغلبت على الغتيات اللواتي يحمن حول فهمي . وقد شعر فهمي ان في زوجته غنية عن كل ما تملكه الحسان من جاذبية وجمال .

عمان   عبد الحميد الانشاصي



معروف الرصافي شاعر العرب الكبير

تاليف قاسم الخطاط ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ومحمد عبد المنعم خفاجي ـ ٣٩٤ صفحة ـ منشورات الهيئـــة المصرية العامـــة للتأليف والنشر ـ المطبعة الثقافية بالقاهرة

شغل الناس بالرصافي في مماته كما شغلوا به في حياته ، وتبارى الادباء في الحديث عنه وابراز معالم حياته وشعره . وكتبت عنه مئات المقالات والفت عشرات الكتب ، وما يزال هذا الشاعر الكبير بحاجة الى دراسات جديدة تظهر جوانبه المختلفة وتلقي ضوءا عليها .

ومن الكتب الجديدة التي صدرت عنه كتاب « معروف الرصافي شاعر العرب الكبير ـ حياته وشعره » وقد قام به ثلاثة كتاب ، اما الاول فهو المحامي الاديب قاسم الخطاط الذي شغف حبا بالرصافي منذ ان كان يسعى بين الاحياء وحينما فارق دنيا الفناء سنة ١٩٤٥ وضع كتابا عن حياته غير ان الرقابة الآخذة برقاب الاحرار منعته من طبعه واذاعته بين الناس وضاعت فصوله المخطوطة ، وفقد مؤلفه في خضم الصراع مع الحياة معلوماته الكثيرة التي جمعها من شفــاه المتصلين بالرصافي ورجال الفكر واعلامه في تلك الايام . ومرت الاعوام وصدرت دراسات عن الشاعر الخالد ، غير ان الفكرة القديمة والشوق المقيم والرغبة الصادقة ظلت تراود الاستاذ الخطاط وتحرك كوامن نفسه حتى اجتمع في القاهرة بمن يكنون لادب الرصافي حبا عظيما ويرون في شعره كنزا ثمينا ينبغي ان لا يكون نهبا للاهــواء وميدانا يجول فيه المتسابقون الى صعود الموجة العالية ، وكان ما اراد وحقق ما سعى اليه قبل اكثر من عشرين عاما .

تحدث الخطاط في القسم الاول من الكتاب عن « حياة الرصافي » وطاف في احداث عصره وعرض ما كان فيه من تيارات اجتماعيــة وسياسية وثقافية مستعينا بالمصادر الاصيلة والمراجع الموثوقة ، ودوّن حياة الشاعر في خضم هذه الاحداث واوضح صُلتها بما كان يجري من امور . وقد التزم في تدوين هذه السيرة بمنهج السرد التاريخي القصصي متابعا خطواتها منذ ولادته حتى وفاته ، لاعتقاده ان هــذه الطريقة في التدوين ترسم صورة واضحة لشخصيته . وهذه طريقة لا غبار عليها لان فيها رصدا للمراحل المختلفة وتصويرا دقيقا للاحداث غير انها قد لا تجعل الكلام على سيرة الشاعر رخوا في كل حين . وقد ظهر ذلك جليا في بعض القضايا كالحديث عن « مجون الرصافي »الذي جاء قبل هجرته الى الفلوجة سنة ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ، ومعنى ذلك ان المجون يمثل فترة معينة في حياته وليس له امتداد في الماضي ، اي كانه مرحلة من مراحل حياته ، فهو كاحدى الوظائف التي تقلدهـــا الشاعر او الاعمال التي قام بها ، وليس الامر كذلك بل مرّ الرصافي بسورتها في فترات من حياته ولم تكن مرحلة مميزة ، وقد اشار الكاتب الى ان هذه النزعة مما كان يتناقله الناس ولعلها كانـــت في مقدمة الاسباب التي ابعدته عن المناصب الكبيرة في الدولة ، الى جانب ما كانوا يتناقلونه عن كفره والحاده ، ولذلك لم يجرؤ صديقه المرحــوم عبد المحسن السعدون على ضمه الى وزارته التي الفها مع ما كان يكنه له من حب وتقدير .

ولو ان الاستاذ الخطاط نسق مادة بحثه وصنفها في موضوعات لاتى بحثه مشــدود الخطى متصل الحلقات من غير ان يهدم ذلك الاتساق حديث عابر ، ولو انه اعــاد النظر في بعض الاحكام لجرد كتابه من بعض الهفوات التي كان مردها الى بعد كتب الرصافــي المخطوطة عن يديه . ومن تلك الامور موقف الشاعر من اعدام بعض رجالات العرب فــي سورية وموقفه من انقلاب بكر صدقــي ، وموقفه من الانكليز ، وبقاؤه حرا طليقا بعد اخماد ثورة ١٩٤١ .ولست هنا في مجال التعليق على هذه القضايا لاسباب ، ولكنني احيل الى كتابي « الرصافي ـ آراؤه اللغوية والنقدية » الذي اوضحت فيــه هذه الجوانب نقلا عن كتب الرصافي المخطوطة ورسائله المحفوظة .

ومن ذلك ان الاستاذ الخطاط ذكر بعض كتب الرصافي في مؤلفاته المخطوطة وهي مما طبع مثل :

١ ـ « الادب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه » الذي طبــع في بغداد مرتين باشراف الاستاذ عبد الحميد الرشودي وتقديم الاستـــاذ كمال ابراهيم والمرحوم مصطفى جواد . وكانت الطبعة الاولى سنــة ١٩٥٦ والثانية سنة ١٩٦٩ .

٢ ـ الرسالة العراقية التي ذكر فصولا منها الاستاذ مصطفى علي في كتابه « الرصافي ـ صلتي به ـ وصيته ومؤلفاته » المطبوع في القاهرة سنة ١٩٤٨ ، ونشر فصولا منها الاستاذ سعيد البدري في كتابه « آراء الرصافي في السياسة والدين والاجتماع » المطبوع في بغداد سنة ١٩٥١ . وظلت بعض فصولها الاخرى طي الكتمان لانه ليس من اليسير نشرها في هذه الايام ، وستبقى سجينة الى ما شاء الله .

٣ ـ آراء أبي العلاء المعري الذي طبع في بغـــداد سنة ١٩٥٥ باشراف الاستاذ الرشودي .

٤ ـ الالة والاداة الذي نشرت مقدمته في جريدة الامل بعنـــوان « جمودنا في اللغة » وفي مجلة الحرية بعنوان « اللغة العربيــة ـ رأي جديد في الاشتقاق والتعريب » .

٥ ـ دفع المراق في كلام أهل العراق الذي نشرت بعض فصوله في مجلة « لغة العرب » وفي جريدة « حبزبوز » .

٦ ـ الشخصية المحمدية الذي نشر الاستاذ البدري فصولا منه ، وظل معظمه بعيدا عن النشر .

يضاف الى ذلك ان للرصافي بحثا نشره في جريدته الامل بعنــوان « نظرة اجمالية في حياة المتنبي » وطبع في بغداد سنة ١٩٥٩ .

وليس في هذه الاشارات ما يقلل من جهد الاستاذ الخطاط فقــد كان عظيما لانه سعى الى اظهار الحقيقة وكشف بعض جوانب حيـــاة الرصافي والقى ضوءا ساطعا عليها ، ويكفيه انه قال كلمته من غير ان يخشى احدا واصدر حكمه من غير ان يلتزم بالاحكام السابقة . وعزاؤه في ذلك قول الرصافي :

وجردت شعري مـن ثياب ريائـه ... فلـم أكسه الا معانيـه الفـرا
فجــاء مضيئا ليلـــه كنهــاره ... وان كان بعض القوم يحسبه كفرا

واضاف معلومات جديدة قد لا نجدها في كتاب ، من ذلك مـــا حدثه به استاذه الشيخ محمد جلال العباسي عن حث الرصافي الناس على التمسك بمبادىء حزب الاتحاد والترقي الذي انقلب عليه بعد ان عرف ما يبيته اصحابه للعرب والمسلمين . ومنها ما رواه لـــه احد اصدقائه من التقاء المرحوم عبد المحسن السعدون بالرصافي في بيتـــه والاطلاع على حاله مما كان سببا في ادخاله عضوا في مجلس النـــواب ليضمن له مورد رزق يعينه على العيش . وان كنت لا أرى ذلـك لان الرصافي دخل مجلس النواب اول مرة في اواخر سنة ١٩٣٠ منتخبا عن لواء العمارة .

وهذه الاخبار وغيرها قد تذهب بذهاب رواتها ، ولو ان الاستاذ الخطاط تمسك بمثل هذه الروايات واثبتها لكان خير عظيم لانها اكثر اهمية من المدون في الصحف او المحبر في الكتب . ولعله يطلع علينا بدراسة جديدة تتخذ الرواية اساسا ومنهجا في الكلام على الرصافي .

واما الكاتب الثاني فهو الاديب الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي الذي كانت له جولات رائعة في ميدان الادب والنقد . وقد تحدث عن « شعر الرصافي » ناظرا اليه بنظرة جيله انصافا له وامانة للادب ، ومر بفنونه المختلفة وتكلم على ما فيها من ابداع او تقليد . وكان موفقا الى حد كبير وان لم تظهر موهبته النقدية وعارضته الفنية التي عرفها النقاد في كتبه ودراساته الاخرى . وكنت اود ان يكون عنوان هذا القسم « اغراض شعر الرصافي » لان الحديث فيه ليس عن جوانب شعره المختلفة وانما كان عن اغراضه ، ويمكن ان يرسم هذا القسم مع القسم الثالث من الكتاب صورة واضحة لشعر الرصافي .

واما الكاتب الثالث فهو الاديب المعروف الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي الذي عرفه القراء بدراساته وكتبه الكثيرة . وقد تحدث عن « التجديد عند الرصافي » حديثا مسهبا ، ولكن البحث تعوزه الدقة والتبويب ، ويحتاج الى الابتعاد عن الآراء المعادة ، والانطلاق الى آفاق أرحب . وفي هذا القسم كثير من الاحكام التي ينبغي ان يعاد النظر فيها من ذلك تاثر الرصافي بجبران والريحاني من المهجريين وشكري والمازني والعقاد من المجددين .

هذه نظرة عابرة في القسمين الاخيرين ولم اقف عندهما طويلا لانهما يفضيان الى مسارب متشعبة وآراء مختلفة قد لا اتفق فيها مع الكاتبين الفاضلين لان الحديث عن شعر الرصافي ذو شجون .

وهناك ملاحظة عامة تتصل بالمصادر والمراجع ، فقد جاء في بعضها تكرار ودخلها الاضطراب ، وكانت « مقالات الرصافي » قليلة ولو تهيات الاسباب للمؤلفين لاحصوا له اكثر من ذلك ، ولكن غياب الصحف القديمة عنهم اوقفتهم دون بلوغ الغاية . ومهما يكن من امر فقد كان الاساتذة الادباء موفقين كل التوفيق في كثير مما قاموا به ، ولا تغض من كتابهم الثمين ملاحظات عابرة اريد بها التقييم لا التقويم .

جامعة الكويت — احمد مطلوب

●

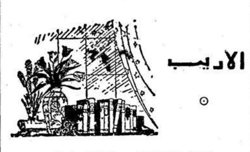
ديوان ابن رشيق

جمع وتحقيق وتقديم الدكتور عبد الرحمن ياغي ـ (؟) صفحة ـ منشورات دار الثقافة ببيروت ـ مطبعة (؟)

ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، شاعر ، ناقد واديب كبير ولد في المسيلة (بالمغرب) سنة ٣٩٠ هـ وقيل في المحمدية رحل الى القيروان سنة ٤٠٦ هـ ونال شهرة ثم غادرها الى المهدية في تونس بعد سنة ٤٤٩ هـ . وفي حدود عام ٤٥٤ هـ غادر المهدية الى (مازر) في صقلية حيث توفي سنة ٤٦٣ هـ على القول الراجح .

اسهم ابن رشيق في فنون ادبية متنوعة فله في النقد كتابان مطبوعان هما « العمدة في صناعة الشعر ونقده » و « قراضة الذهب » وله كتاب ثالث في السرقات الشعرية لم يصلنا هو « كشف المساوىء » وله في السيرة الادبية والتراجم كتابان مهمان هما :

« انموذج الزمان في شعراء القيروان » و « الروضة الموشية في شعراء المهدية » وقد فقدا ، غير ان من الاول نقول مهمة اثبتها بعض مؤرخي الادب وابرزهم ابن فضل الله العمري في مخطوطته الكبرى « مسالك الابصار » ويعكف على جمعها وتبويبها صديقنا الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل. ل.

●

في الخارج العربي : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في سائر الاقطار : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٥ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج : ٥٠ ل. ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

☎ الادارة ٢٢٣٨١٩ — Dir : 223819
☎ المنزل ٢٢٥١٣٩ — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير أديب

التونسي ابو القاسم محمد كرو تمهيدا لنشرها في كتاب .

وله ايضا مساهمة في كتب التاريخ بكتابه المفقود « ميزان العمل في تاريخ الدول » وله ايضا كتاب آخر من كتب التاريخ هو « تاريخ القيروان » وهو مفقود في زمننا هذا . وله في اللغة كتاب « الشذوذ في اللغة » وهو مفقود . وله في الفقه نشاط محمود بشرحه لموطأ مالك ، ولم يصلنا . وله رسائل عدة تمثل مساجلات ادبية قامت بينه وبين ابن شرف منها : رسالة ساجور الكلب ، ورسالة قطع الانفاس ، ورسالة نجح الطلب ، ورسالة رفع الاشكال ودفع المحال ، وكتاب فسخ الملح ونسخ اللمح ، والرسالة المنقوضة ونقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية ولم يصلنا من هذه الرسائل شيء .

ويظل بعد هذا الحديث عن ديوانه ، فقد ذكره ابن خلكان في الوفيات غير ان الديوان المذكور ضاع فيما ضاع من تراث السلف . فنهد لجمعه اولا الاستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي ونشره في كتيب سماه « النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف » جمع فيه اربعمائة وستة وتسعين بيتا .

ثم قام الدكتور عبد الرحمن ياغي ، بجمع شعر ابن رشيق فاجتمع له من مختلف المصادر والخطان سبعمائة وثلاثة واربعين بيتا نشرها في ديوان صدر عن دار الثقافة في بيروت بعد ان وطأ لها بمقدمة ترجم فيها للشاعر وعرف بمصنفاته باختصار ، وقد رتب شعره وفقا للقوافي ترتيبا هجائيا ، واثبت مصادر ومراجع كل قصيدة او قطعة مشيرا الى اختلاف الروايات في بعض الاحايين ، وقد بلغت مصادره (٤٦) مصدرا ما بين مخطوط ومطبوع . ولعل ابرز المخطوطات التي رجع اليها : تذكرة الصفدي وترتيب المدارك للقاضي عياض ، والجزء من شعر الشيخ ابي الحسن الصقلي وفصوص الفصول لابن سناء الملك ، ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري . وليس من شك ان الرجوع لمثل هذه المخطوطات القيمة يمثل اصالة النزعة العلمية التي تحلى بها جامع الديوان وروح التقصي والتتبع عنده .

وقد رأيت ان استدرك على الديوان بعض ما ظفرت به من شعر ابن رشيق في المراجع مما لم يضمه الديوان المطبوع استكمالا لهذا العمل العلمي القيم فمن ذلك .

قال :

يا رب ليل بته   مثل مبيت النابغه
ولم يساورني سوى   عقرب صدغ لادغه
وقد بدا البدر المنير   والثريا بازغه
كانه ترس لجين   حول درع سابغه

وقال :

وجرى شعاع البدر فيه فانثنى   كاللازورد المذهب الاثناء

وقال :

وليل بعيد الجانبين سهرته   مع النجم حتى مقلتي ليس تطبق
وقد جنحت فيه الثريا كانها   على عاتق الجوزاء قرط معلق

وقال :

خليلي هل اعطيتما اللحظ حقه   من البركة الحسناء شكلا ومنظرا
اذا باشرت اولى النسيم حسبتها   من الرنج المفروك ثوبا منشرا
كان شباكا القيت في متونها   فابقت مثالا فوقها قد تسطرا
ويتركها مر القبول كما انثنت   معاطف ثوبي راقص قد تكسرا

وقال :

لدينا بركة كالبدر حسنا   وليس يصيبها كالبدر نقص
كان الريح تأتيها بريا   حبيب قد تباعد منه شخص
فيطربها الى ان يعتريها   من الاطراب تصفيق ورقص

وقال :

والماء ساج مستكين هيبة   لمعز دين الله ذي الالاء
ذوب من البلور عاد لوقته   في هيئة الياقوتة الزرقاء
يحكي المبارد بالمتون وتارة   كبطون حيات على رمضاء

وقال ابن رشيق يصف طلع النخيل :

وكم بيضاء مسكي قناها   من الاغريض حسناء الجميع
هتكت حجابها عنها فابدت   لسان البحر في يبس الضريع
او العضد الطرية حين ابقت   بها اثارها حلق الدروع

وقال :

نظرت من البستان احسن منظرا   وقد حجب الاغصان شمس المشارق
الى دوح كمثري يلوح كأنه   قناديل تبر محكمات العلائق
وسافرة عن اوجه من سفرجل   يحيل على معنى من الحسن فائق
حكت سرر الغادات منها اسافل   وتحكي اعاليها نهود العواتق (١)

وقد فات المحقق الفاضل وهو يعدد مصنفات الشاعر الاشارة الى كتاب مهم من كتبه اسمه « تزييف نقد قدامه » ذكره ابن ابي الاصبع المصري (المتوفي سنة ٦٥٤ هـ) في تحرير التحبير في الصفحة ٨٨ وفي الصفحة ٢١٢ وتحامل عليه فقال : « ولو رأى ضياء الدين رحمه الله – ويقصد ابن الاثير – كتابه الذي سماه تزييف النقد يرد به على قدامه رأى كتابا يحلف الحالف صادقا انه ما تكلم فيه بحرف واحد الا وهو مطبق الجفون ليس له وقت افاقة البتة » . وقال عنه ابن ابي الاصبع في موضع اخر : « فاني رأيت ابن رشيق القيرواني قد ذهب ايضا الى تغليطه في كتاب كان ستره اولى به من اظهاره ، فانه ينادي عليه بجهله » (٢) .

ويلاحظ ايضا ان الدكتور عبد الرحمن ياغي وان بذل جهدا مشكورا في تخريج شعر الديوان ، الا انه كان يكتفي احيانا بذكر مصادر محدودة ولا يهمه ذكر اختلاف الروايات دائما وهو شيء لاثباته قيمة كبرى في النهج العلمي للتحقيق . وساضرب على ذلك بعض الامثلة مما يوضح الفكرة ويدعمها بالدليل العلمي . من ذلك مثلا :

١ – وردت القطعة رقم (٢٨) في الديوان بالرواية التالية :

فقل لصروف الدهر ضري او انفعي   فاني من مثوى بعيد على قرب
هو المرء اما جاره فهو آمن   واما العدى والمال منه ففي رعب
متى يدعه الداعي لدفع ملمة   تجاوبه منصور اليدين على الخطب

والنص المتقدم منقول عن مخطوطة للخريدة في الجامعة المصرية ولكن نص خريدة القصر – الجزء الثاني ص ١٢٢ تحقيق الدكتور عمر دسوقي وعلي عبد العظيم جاء كالآتي :

فقل لصروف الدهر ضرى او انفعي   فاني من مثوى المعز على قرب
هو المرء اما جاره فهو ارض   واما العدا والمال منه ففي رعب
متى يدعه الراجي لدفع ملمة   يجاوبه منصور اليدين على الخطب

ومن المعلوم ان النسخة الام التي رجعا اليها محفوظة بدار الكتب المصرية وهي مصورة عن النسخة الباريسية ، فالرجوع اليها كان في متناول الدكتور ياغي وبالتالي كان اثبات هذه الاختلافات في الروايات امرا ضروريا .

ومن ذلك مثلا ، البيتان الواردان تحت رقم (١٥٧) في الديوان وروايتهما فيه :

اصح واقوى ما سمعناه في الندى   من الخبر المأثور منذ قديم
احاديث ترويها السيول عن الحيا   عن البحر عن كف الامير تميم

وقد رجع في تخريجهما الى المصادر التالية : المعاهد ، والمطرب ، والوفيات . وهذا في راينا تخريج ناقص ، اذ البيتان موجودان في المراجع التالية ايضا : الطراز ليحي بن حمزة اليمني ١٤٧/٣ وفي الايضاح للخطيب القزويني ٢٢/٦ وفي نهاية الارب ١٥٨/٧ وهما ايضا في تحرير التحبير ص ٣٦٦ برواية اخرى هذا نصها :

١ – ورد البيتان الاول والثاني في الديوان ص ١١٨ (جمع الدكتور ياغي) وروايتهما فيه . نظرت الى .. به زوج رمان يلوح كأنه ..

٢ – انظر مقدمة المحقق الدكتور حفني شرف لتحرير التحبير ص ٥٢ وقد احال في العبارة المنقولة على مصدر سماه « الخواطر السوانح في اسرار الفواتح » لابن ابي الاصبع ايضا .

اصح واقوى ما رويناه في النـدى   عن البحر عن جـود الامير تميم

واثبات مثل هذا الاختلاف في الرواية امر ضروري في التحقيق العلمي .

وبعد ، فقد التزم الدكتور ياغي ترتيب اشعار الديوان على احرف الهجاء بالنسبة لقوافيها ، وهو منهج حسن ولكنه كان يقحم احيانا ابياتا في غير مواضعها . كما صنع في البيت المرقم (١٢٥) وهو:

كل الى اجـل والدهر ذو دول   والحرص مخيبـة والرزق مقسوم

اذ اقحمه بين القاف والكاف وحقـه ان يوضع في روي الميم .

وفوق كل ذي علم عليم .

بغداد — هلال ناجي

•

بـروق ورعـود

ديوان شعر ـ شكر الله الجر ـ تقديم غنطوس الرامي ـ (؟) صفحة ـ منشورات دار الثقافة ببيروت ـ مطبعة (؟)

عبقرية الكلمة هبة من الله لا يمنحها الا من كانجديرا بحمايتها والمحافظة عليها من امثال الفنان الشاعر ، والاديب الناقد شكر الله الجر الذي كثر الناهلون من رحيق ادبه وفنه ، وقد حلى جيد الادب بكثير من روائعه الشعرية كالروافد ، وزنابق الفجر ، واغانـي الليل ، ودرره القصصية والنقدية ، كالشبح الابيض ، وجـزر الخطيئة ، والمنقار الاحمر ، واسمعنا فيها الحب الحانـا ، والحنين انغاما ، وصب لنا كؤوس الفن اشكالا والوانا ، وهو اليوم يتوج هام الشعر بدرة ثمينة هي ديوانه الجديد « بروق ورعود » ، وفيه تسمع صراخ الغربة ، واغاني الغياب ، وحنين الذكريات في ومضات شعرية ، ورعود حماسية، يغنيها لوطنه وقومه ، في موكب مائج من مواكب أبولو ، فلا نلبث حين نتجول بين صفوفه ان نحلق مع الشاعر في سماء الفن والالهام .

وربما كان في تسمية الديوان « بروق ورعود » ما يدل على مـا اعتلجت به نفس الشاعر من ذكريات عاصفة عبر عنها في قصيدته التي القاها على ادباء لبنان الذين كرموه بعد عودته مـن البرازيل عـام ١٩٦٤ فقال :

صور مـن الماضي البعيـد تجـد في المشتاق وجدا
وعواصف هوجاء تـدوي في خريف العمـر رعدا
جيش مـن التذكار كيف أدرت وجهي لـي تصدى

ولا يظن احد ان هذه البروق والرعود نذير شتاء قارس ، فوراءها كما يقول الشاعر في همسته الى ادباء امته (ربيع مخضوضر زاهر) ، ولكنه اذ يقف (على منبر الربيع) يسائل ملـك الورود الذي كسا الارض أسنى البرود ، سؤال اللهيف :

أتعيد مـن كـرم يـداك الـي ما فقدت يـدي
فيعود لي بعد الخريف ربيـع أمسي في غـدي

اتراه اذا قد بدأ يحس بالخريف يهيمن على رياض عمره حتى راح يوشح قصائده بغلالة من التشاؤم نستشفها من البيتين اللذين يقدم بهما ديوانه قائلا :

هاك أفلاذ مهجتي يـا صديقي   تتجلى في وجنة الشعر خـالا
لست تـدري أدمـع فـي قوافـي علـى الطـرس أم دم يتـلالا

أم تراه يستوفز احساسه الحزيـن حين عصفت بـه الذكريات فوقف يناجي نهر قريته في قصيدته « اغنية النهر » متذكـرا ملاعب صباه في ظلال حوره ، وعلى صخور ضفتيه ، فيتشاءم وينشد :

غنني يـا نهـر مـا غنيت لـي عهد الطفولة
وازلها غصصا عـن جانـب القلـب ثقيلـة
أصبحت يـا نهر أيامي مـع الدنيا قليلـة

قد يكون هذا أو ذاك هو الدافع الحقيقي للتشاؤم عنده ، ولكننا نلمح بروقا من الامل ، وراء هذه السحب الرقيقة ، تلـوح في سماء شكر الله يتحدى بها الخريف ، مستعيضا عن شباب العمر بشبـاب الروح في حواره اللطيف « قالت وقلت » :

قالت الام الهـوى ....   ولى شبابـك لا زهـر ولا ثمر
فقلتما هم ان شمس الصباغربت   اذ طالما من شباب الروح لي قمر

فالشباب عنده شباب الروح لا الزمن ، ولكـل من ربيع العمر وصيفه وخريفه وشتائه طعم خاص ، وحسن فريد ، وللكهولة في رأيه حلاوة لا تضارعها حلاوة الشباب ، بشرط واحد :

شرط الكهولة ان يبقي الشبابلها   بعض البهاء فتستجليه أنظـار
كم في الكهولة حسن لا يضارعـه   حسن الشباب وفيه النور والنار

والحياة عنده شاشة تتوالى عليها مشاهد المرء في ادواره المختلفة، لهذا لا يبالي ما سيأتي به خريف الحياة وشتاؤها :

لا ابالي وقد تناثر مـن عمري شباب مخضوضر نضر
لا ابالي اذا الليالـي استبدت بفؤاد صفاؤه كـدر
لا أبالي اذا تحطم في كفـي انـاء في قعـره قمر
كل مـا في الوجود مما تراه العين في شرعة النهى صور
شاشة هـذه الحيـاة عليهـا تتوالى مشاهد غـرر
نحـن فيهـا الممثلون لادوار عظـام ....

واي خريف هذا ، والروح الوثابة المفعمة بالحيوية والنشاط تدفع شاعرنا لاطلاق بروقه ورعوده التي تفوق في جمالها وحلاوتها ازاهير ربيعه ، وفواكه صيفه ؟

لقد ظل الجر يذكر وطنه ، ويحن اليه في غربته ، ويتحرق شوقا للقائه ، حتى حنت عليه الاقدار ، فحققت أحلامه بالعودة ، فـراح يسمعنا مناجاته لوطنه أناشيد وترانيم في هيكل الحب والجمال :

أنـا منك يـا لبنـان يـا وطـن الجمال نهى ولب
انـا مـن حروف الحب فيـك لنقطة في البـاء تحبـو
انـا مـن كؤوس المجـد في كفيـك كـاس تشرئـب

ويرد على من زعم أنه استطاب الحياة بعيدا عن بلاده في « اغنية الغياب » التي يحن فيها حنينا عاطفيا رهيفا :

مـن قال لا اشتاقها شوق الفراشة للزهـور
شوق العيون الى ضياء البـدر في ليـل مطير

الى ان يقول :

ان الحيـاة بدونهـا ألـم وأشواق وسهـد
ولواعج هـي فـي خضم مدامعـي جزر ومـد
سيظل مـن ذكـرى هواهـا لـي مع الانغام عهد
في شهقة النـاي التهافـات وفي الاوتـار وجـد

وتتجلى رعوده القاصفة في تلك الصرخات التي يتوجه بها الـى ابناء امته ليحضهم على الاخذ بأسباب المنعـة والقوة حتـى يقهروا أعداءهـم :

ام لـم يقم جيش وراء صداحكم ضوضاؤه
جيش لـه يـوم الكفاح فنونـه ودهـاؤه
وقلاعـه وحصونـه وسلاحـه ومضاؤه
هيهات يشفع للضعيف نبوغـه وذكـاؤه
وجلال ماضيه ومـا حفلت بـه أنبـاؤه

ولا ينفك الاستاذ شكر الله ينحي باللائمة علـى ابناء وطنـه ، ويقرعهم تقريعا شديدا ، عسى ان يتخلصوا مـن السلبيـة والضعف والمداجاة فيقول :

حتـام نشهد بالعينين مصرعنـا   كأنما الامر فينـا ليس يعنينـا
ابناء قومي كفى ضعفا ومسكنـة   كفى على الضيم تلطيفا وتهوينـا
يكاد واحدنا يخشى الجهار بمـا   في نفسه فنداجي مـن يداجينا

ويطلقها رعودا صاخبة في قصيدته الاخيرة متوجها بها الى وطنه معاتبا ومعنفا ، وفي قلبه مرارة وغصة :

أتكون للشذاذ دنيانا مراحا ثم مغدا
أتكون للدخلاء مرتزقا ومنتجعا ووردا
أتكون للقطاء من أي الدروب حمى وعضدا
أتكون للمتآمرين عليك انعاما ورفدا
وفتاك منهو من جذوعك في الصميم ابا وجدا
متلفع بالليل لا خد يقبل منه خدا
في حين تغمر شمس عطفك من تمرد واستبدا

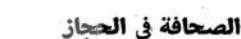
وبعد ، فان ديوان « بروق ورعود » لجدير بدراسة اعمق واشمل، وليس ما ذكرته هنا سوى لمحات خاطفة ، وخواطر سريعة ، أحببت ان ازجيها تحية اعجاب واكبار للشاعر الملهم ، والفنان العبقري الكبير ، وليسمح لي ان اقول بلسانه :

حسب الاديب بأن التاج منخلع والسيف منحطم الا يراعته
عرش الاديب بعرش الشمس منعقد فلا تزعزع كف الدهر منعته

بل لن يطوح بعرشه الفني خريف ولا شتاء ، وانما سيظل انتاجه نابضا بالحياة ، فواحا بالعطور والطيوب ، لان وراءه ربيعا مخضوضرا زاهرا يرقص بأجنحة الهوى والشباب .

جامعة دمشق **عزيزة مريدن**

•



الصحافة في الحجاز

تاليف الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ ـ ٢٣٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الامانة ببيروت

الصحافة في الحجاز (١٣٢٦ هـ ـ ١٣٦٠ هـ : ١٩٠٨ ـ ١٩٤١ م) كتاب شامخ حقا ، للدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ المدرس بكلية الآداب بجامعة الرياض يتناول حركة الصحافة وتاريخها وتطورها في الحجاز في ثلث قرن من الزمان ، في فترة كانت حافلة بشتى التطورات، وكانت حاسمة في تاريخ نهضة هذه البلاد وتقدمها .

وقد صدر المؤلف عن منهج علمي اصيل ، وامانة في البحث لا حد لها ، مع الاستقصاء والشمول ، والرجوع الى المصادر المنوعة ما امكن الباحث ذلك ، لذلك خرج الكتاب ذا طابع مستقل في البحث والدراسة ، وذا صبغة علمية مركزة . ويحتوي الكتاب على دراسة ونصوص واسعة لنشأة الصحافة وحركتها في هذه البلاد ، في فترة تمتد من اواخر العهد التركي الى الحرب العالمية الثانية .

ومادة الكتاب العلمية مفخرة حقا للكتاب السعودي المعاصر اليوم، وهي تمثل جهدا علميا كبيرا يبذله الجامعيون والمفكرون في هذه البلاد، من أجل ازدهار الحركة العلمية والبحث الاكاديمي ، ومن أجل وجود الكتاب المقروء في هذه البلاد باقلام ابنائها وصفوة المثقفين فيها . وقد اعطى الدكتور الشامخ لبحثه كل ما يجب ان يعطيه له من بذل وجهد واهتمام وتركيز ومراجعة واطلاع ، مما نحمده له ، ونقدره من أجله .

يتضمن الكتاب ابوابا ثلاثة :

الاول عن تاريخ الصحافة في الحجاز في آخر العهد العثماني (١٣٢٦ ـ ١٣٣٤ هـ : ١٩٠٨ ـ ١٩١٦) حيث كانت السيادة لتركيا آنئذ على هذه البلاد . وتناول هذا الباب في فصله الاول دراسة لنشأة الصحافة في الحجاز ، وللصحف الحجازية في هذه الفترة ، من امثال جريدة « حجاز » التي كانت تصدر عن مطبعة الولاية منذ ظهورها عام ١٩٠٨ ، وجريدة « شمس الحقيقة » التي صدرت عام ١٩٠٩ ذات طابع تركي ، وكانت تنطق بلسان جمعية الاتحاد والترقي ، وجريدة « الاصلاح الحجازي » و « صفا الحجاز » و « الرقيب » و « المدينة المنورة » وكانت هاتان الصحيفتان تصدران من المدينة المنورة . ويتحدث المؤلف عن حركة انشاء المطابع التي ظهرت عام ١٩٠٩ ، وكان من ثمراتها المطبعة الماجدية وغيرها .

ويتناول الفصل الثاني من هذا الباب نصوصا صحفية من صحف ذلك العهد .

والثاني عن تاريخ الصحافة في العهد الهاشمي (١٩١٦ ـ ١٩٢٥) ، ويتحدث المؤلف في الفصل الاول عن « القبلة » التي كان يرأس تحريرها محب الدين الخطيب ، و « الحجاز » و « الفلاح » و « بريد الحجاز » وهي كلها من صحف ذلك العهد . ويتناول في الفصل الثاني نصوصا مختلفة من صحف تلك الفترة .

والثالث من تاريخ الصحافة في اوائل العهد السعودي (من ١٣٤٣ ـ ١٣٦٠ هـ : ١٩٢٤ ـ ١٩٤١) ويدرس فيه المؤلف في الفصل الاول منه تاريخ الصحافة والصحف في هذه الحقبة : كصحيفة « ام القرى » الرسمية الاسبوعية وصحيفة « صوت الحجاز » (١٣٥٠ ـ ١٣٥٩ هـ : ١٩٣٢ ـ ١٩٤١) التي تعد من ابرز المعالم في تاريخ الادب الحديث في المملكة العربية السعودية ، وقد توقفت نحو خمس سنوات لظروف الحرب (١٩٤١ ـ ١٩٤٦) ، ثم صدرت باسم « البلاد السعودية » ، واخيرا باسم « البلاد » ، وكصحيفة « المدينة المنورة » وكمجلة « الاصلاح » ومجلة « النداء الاسلامي » ومجلة « المنهل » التي اصدرها الاديب السعودي الكبير عبد القدوس الانصاري في المدينة عام ١٣٥٥ هـ : ١٩٣٧ م ، ولا تزال توالي الصدور حتى اليوم ، معتزة بكفاحها الادبي والصحفي خلال خمس وثلاثين سنة .

ويذيل المؤلف الدكتور الشامخ كتابه بفهارس متعددة للمصادر والاعلام والمطابع والمؤسسات الصحفية ولمحتويات الكتاب ، ويا حبذا لو ذيله بفهرس لكتاب ولمقالات صحف هذه الحقبة من حقب تاريخ الصحافة في هذه البلاد .

ويقول الدكتور الشامخ في مقدمة كتابه في تواضع العلماء والباحثين :

« حاولت في الصفحات التالية ان ادرس صحافة الحجاز ، دراسة تاريخية ، وان اشير الى ما قامت به من دور في خدمة الحركة الفكرية والادبية ، منذ عام ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٠٨ م ، حتى عام ١٣٦٠ هـ ـ ١٩٤١ م » .

والعناية هنا بدراسة صحافة وصحف الحجاز في هذه الحقبة الحافلة ، لان الحركة الصحفية فيه كانت اسبق الحركات الصحفية في

ارض الجزيرة العربية من جانب ، وكانت مقدمة لحركة الصحافة في انحاء المملكة كلها في العهد السعودي من جانب آخر ، وهي هذه الحركة التي نراها ونتمثلها امامنا اليوم .

ان كتاب « الصحافة في الحجاز ١٩٠٨ ـ ١٩٤١ دراسة ونصوص» بمادته العلمية المركزة الخصبة ، وبأناقة اخراجه ، ليعد من اجمل الكتب التي يجب ان نعتز بها اعتزاز المقدرين لجهود العلماء والكتاب من اجل العلم والبحث . واتمنى ان اراه في كل يد لنطمئن على ارتفاع مستوى الثقافة في الامة ، وعلى ان جمهور المثقفين ارتفع عن مستوى تأثير المجلات المصورة التي تلاحق الجنس وتغري الناس بقراءتها من أجله .

وقد يكون الكتاب مقدمة لتفكير جدي في قيام كلية الآداب بجامعة الرياض وبجامعة الملك عبد العزيز ، وكلية اللغة العربية في الرياض بدراسة مادة الصحافة ضمن برامجها .

ومن التدقيق ان هذا الكتاب قد صدر ، وصدر معه كتاب « موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية » بقلم محمد ناصر بن عباس ، وصدرت معهما دراسات صحفية علمية مركزة ، كهذه الدراسة التي كتبها العلامة الكبير عبد القدوس الانصاري عن مجلة « الحج » ، وتنشر تباعا في مجلة « التضامن الاسلامي » .

تحياتنا للدكتور الشامخ ولكتابه .

الرياض — محمد عبد المنعم خفاجي

•

شلحة نـاي

ديوان شعر ـ علي الزيبق ـ تقديم سعيد عقل ـ ١٢٤ صفحة ـ منشورات المكتب التجاري ببيروت

هذا هو الديوان الثالث لشاعر حلب علي الزيبق ، فقد أصدر قبله ديوان « سامبا » (حلب ١٩٥٢) ، وديوان « النبعة اليتيمة » (حلب ١٩٥٩) .

وقعت في هذا الديوان على نفس موسيقي جديد لم أحس به في ديوانه « النبعة اليتيمة » . انها موسيقى حية عذبة ، تبلورت ، واتخذت انغاما حلوة طابعا لها ، بعدما كانت فيما سبق ضربات اوتار ناعمة فحسب ! واكاد اقول صادقا انني فوجئت بهذا الديوان المشتمل على الغزل وحده . وليس غريبا أن يصدر شاعر ديوانا خصه بالغزل ، ولكنني ما توقعت يوما ، ان هذا الانسان الهادىء الطبع ، الصامت ، قد أمضته تجارب وتجارب ، ونحتت قوافيه همسات الحب وخفقات الفؤاد . واذ عدت الى نفسي أراجع ما اعرفه عن علي الزيبق ادركت ما لرهافة حسه من عمق ، واندفاع ، وشفافية ، فمشاعره كما اعلم أجنحة فراشات مذهبة . كنت اتصور انه عانى من الحب ما يعانيه كل رجل في بدء حياته ، فاذا به يحملنا على ظهر الغمام ، ويطربنا بهذه الانغام التي تحمل تحت أجنحتها بقايا ألم ممض ، وذكريات نامت في صدر الشاعر لتستيقظ خيالا معطرا بنكهة خاصة .. ان قصته مع المرأة طويلة ، وتجربته عميقة ، فاذا به يجدها كاذبة ، كاذبة ابدا :

نقلت لي الاخبار من وردة   لوردة في الشفة الفضة
شردتني ما بين .... ، ما   بين ضفيرتين ، يا حلوتي
كذابة أنت ، وما من غد   أجمل تنقلين في الخطوة

لقد احسست عند قراءة القطع والقصائد الشعرية انها قيلت في لحظة شعورية واحدة ، او هي متناسبة التوافق . فالموضوع هو المرأة ، والنداء هو نداء العطش والالم والحرمان ، وهو عطش روحي يلبس ثوبا ماديا . وكما قال سعيد عقل في مقدمته « بعض من هذا الديوان ستخبئه صبية تحت وسادتها ، وستبكي جاهشة لان حبيبها لم يعرف ان يبثها مثل هذا البث » . فمنذ فاتحة الديوان ، وهي بعنوان « غيرة » ، نحس بهذا المد العاطفي المبثوث ، والذي لبس ثوبا من الشكل والمادة .

وتتوالى بعدها قصائد ومقطوعات نسجها الشوق والعذاب ، وعزفتها البراءة ، وكأننا نتنقل كفراشة عاشقة من زهرة الى زهرة ، فيقول في « أمان » :

أواه من خمارة الظن ... أواه   من العري الذي يبهر ..
عمقني الحزن ، فمن معزف   الحزن خموري كلها تعصر

وينظر الشاعر الى المرأة فيجدها جمالية مطلقة ، وحلما ابيا ، وقاربا يبحر به عبر احلامه :

أنت خمري ، لطالما لونت دربي   بأسرار روحها المشبوب
أنت يا أنت ! قاربي كلما ابحرت   في الفجر بين زهر وطيب

لقد عذبت المرأة الشاعر ما شاء لها أن تعذبه ، بل تمادت ، فتلذذت بتعذيبه . ولكن الشاعر لم يشأ ان يفصح لنا عن السبب الحقيقي ، أهو زيف المرأة أم كذبها ! أهو غيرته النرجسية أم حرمانه المطلق ، وجوعه وعطشه .! انه يعترف بشقائه :

ولو تدرين ما بي من شقاء
وما بي من شقاء يا هنائي !

ويقول في مقطوعته « ما بيننا » :

عذبتني ، عذبت هذا الهوى   فما الذي تبغين يا وحشية

ولعل مصدر ألم الشاعر وعذابه هذا الاهمال الذي لقيه من المرأة التي لا تعيره لفتة او بسمة او تعطيه لحظة سحرية . لقد أحب بصدق ، أحب ببراءة تامة ، وخيالية مغرقة :

كم غزلت يداي أغنية
لعلني ألبسها الاغنية !
فما أعرتني ، ولا لفتة
لا بسمة ، لا لحظة سحرية

أهي عقدة شائكة يعاني منها الشاعر ، هي ظاهرة الاهمال ، أم أن الشاعر لم يفهم نفس المرأة ولم يسبر غورها فيكتشف مفاتيح كنوزها ؟ ومهما يكن من حال الشاعر فقد قدم لنا تجربة ومعاناة خاصة في اطار غنائي ، مفصحا عن المرأة التي لا ترعى عهدا ، ولا تحفظ ودا ، ولا تحترم حبا :

ولقد كنت تكذبين ، وها اني   تعلمت ان اصير كذوبا
مرحبا .. جاء دورك الآن، فامضي   احملي ، مثلما حملت ، الصليبا
سترين الحياة صحراء ملح   وتقولين قد اضعت القليبا

ولعلنا نجد في ديوانه ريحا تشاؤمية هي استمرار لما في ديوانيه السابقين ، فهل وصل الشاعر حد اليأس من المرأة ؟ لا . انه يجد لذة خفية في عذابه ، ولكنه لا ينكر عمق ألمه وبؤسه .

وقد نأخذ على الشاعر انغماسه في مادية مطلقة ، ولكن الصورة الجمالية واللون الموسيقي العذب قرب هذه المادية الى حافة خيالية ، فجاءت الصور على عادة الشاعر ، مجنحة ، لا تخلو من الابداع :

اواه يا حبيبتي ! اواه من   شفة اذا قبلتها أتحرر

بقي ان اشير الى موسيقى اللفظة الواحدة . ان الايقاع الداخلي او الميلودية والانسجام التام بين المعنى والصورة هو ما اجده سمة جديدة متقلبة في « شلحة ناي » ، فالريح الغنائية هي نسيج داخلي يمتزج بنفس الشاعر وقدرته وعطائه . ولا يعني هذا ان الديوان خلا من النثرية والجملة المسطحة المبتورة ، الا ان هذا لا يغنينا من نظرة جديدة واسعة على شعر هذا الشاعر لنعطيه حقه ، ونأخذ حقنا كقراء أولا .

حلب — جهاد الكاتب